رواية

ودارت الأيام

تأليف:

محمد بن عصبي بن محمد الغامدي

ح محمد عصبي الغامدي، ١٤٤٣ هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الغامدي، محمد عصبي محمد
دارت الأيام. / محمد عصبي محمد الغامدي. - ط ١. - مكة المكرمة ، ١٤٤٣ هـ
١٢٧ ص، ١٤× ٢٠ سم
ردمك: ٧-٨٨٤١-٠٣-٦٠٣-٩٧٨
١- القصص العربية - السعودية أ. العنوان
ديوي ٠٣٩٥٣١ , ٨١٣ ١٤٤٣/ ٦٤٦٧

رقم الإيداع: ١٤٤٣/ ٦٤٦٧
ردمك: ٧-٨٨٤١-٠٣-٦٠٣-٩٧٨

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

دار الطرفين للنشر والتوزيع
الطائف - وادي وج - جنوب جسر خالد بن الوليد
جوال: ٠٥٠٥٧٠٤٨٠٨ - ٠٥٠٣٥١٢٤٩٩
www.tarafen.com
tarafen@maktoob.com

عندما تخرجت من معهد المعلمين.... كنت لم أبلغ العشرين من عمري تقريبًا بعد... وقد تم تعيني في مدرسةٍ بعيدةٍ عن الطائف بما يقرب من مائة كيلومتر. في منطقة نائية...

وبعد صدور قرار تعييني استأجرت سيارة جيب واتجهنا إلى جهة الشرق.... لم يكن الطريق معبدًا..... أخذنا وقتًا طويلًا حتى وصلنا إلى وادي السدرة (مكان المدرسة.) فا لطريق وعرة والمسافة بعيدة...

كانت المدرسة عبارة عن بيت مستأجر مبني من الطوب الإسمنتي ومسقوف بالخشب الأبيض تعلوه طبقة خفيفة من الخرسانة..... كان الوقت بعد العصر.. ولم يعد أحدًا بالمدرسة....

عندما وصلت إلى المدرسة أنزلني صاحب السيارة وعاد أدراجه..... كنت واقفًا أمام المدرسة وحدي.... هناك بيوت شعر متناثرة حول المدرسة إلى مالا نهاية.... من كل الجهات... كما إن هناك بيوت من الطوب مسقوفة بالزنك. وبيوت من الإسمنت المسلح. كثيرة أيضًا..

كان باب المدرسة مقفلًا.... وجلست فوق الفراش الذي أحضرته أمام باب المدرسة.... وكنت احتاج إلى من أكلمه أو أسأله عن مفتاح

المدرسة..... وأفكر أن أنام تلك الليلة بها.. ومن الغد سوف ابحث عن مكان اسكن فيه..... كانت المدرسة على قارعة طريق ترابي....

بعد ذلك حملت فراشي وحقيبة يدوية كان فيها ملابسي واتجهت إلى المسجد القريب من مبنى المدرسة. حيث كان بابه مفتوحًا...

المسجد كبير... مبني من الطوب المصنّع من الطين يتوسطه فتحة كبيرة يقفل عليه بابان احدهما من جهة المدرسة والآخر من الجهة الجنوبية..... كانت الأعمدة الداخلية من جذوع النخل.... ومفروش من الحصير المصنوع من سعف النخل أيضًا..... أما الشبابيك فهي من الخشب القديم وكأنه من رجيع خشب قد تم استعماله....

دخلت المسجد واتجهت إلى الحصير المفروش هناك..... وضعت فراشي انتظر أي صلاة تقام فيه... كي اسأل من يأتي للصلاة عن مكان اسكن فيه وخرجت عند الباب....

رآني صاحب سيارة كانت عابرة من أمامي.... أدار عجلة سيارته واتجه إليّ..

- سلام عليكم...

- وعليكم السلام...

- أنت المدرس الجديد..؟

- نعم أنا المدرس الجديد... تعرف أحدًا لديه مفتاح المدرسة..؟

- نعم..... إنه العم صالح....

- أريد أن تخبره أنني وصلت.. وأريد أن أبقى في المدرسة حتى ابحث لي عن سكن....

- أنا اذهب إليه الآن وان شئت... فهناك مدرس آخر ساكن في ذلك البيت.... وأشار إلى بيت غير بعيد عن المدرسة...

- أشكرك..... أنا أريد العم صالح....

كانت المنطقة عبارة عن وادي كبير هو مجرى سيل تحيط به بيوت شعر وقطعان الأغنام أمامها كثيرة جدًا.. وهناك بيوت متناثرة على سفوح الجبال المطلة على الوادي.... كنت أتأملها وأفكر فقط أين أسكن في هذا الوادي وأتمنى أن يكون قريبًا من المدرسة....

المدرسة عبارة عن بناية كبيرة من دور واحد. أمامه مساحة كبيرة توقعت أنها ملاعب للرياضة وطابور الصباح وما في حكمها..... وأخذت أطوف حول المبنى فكان الفراغ قاتل... وتداخلت الأسئلة براسي..... هواجس كثيرة.... ليس للمدرسة سور بل فضاء كبير من جميع الاتجاهات....

ولم يطل المقام بي بعد ذلك حتى عاد ذلك الشاب ومعه حارس المدرسة ورحب بي وأدخلني إلى المدرسة ثم طلب مني الذهاب معه إلى البيت....

كنت بحاجه إلى أكل أو شرب..... فانا لا أحمل معي إلا فراشي.. ولم أكن اعلم أني ســـأصل إلى مـكان مقطوع مثل هذا...

ذهبت معه إلى البيت وأكلنا وشربنا وارتحت فيه بعض الوقت.... ثم قال لي.. هيا نذهب إلى الأستاذ علي. انه مدير المدرسة... فلم يكن لي خيار آخر فذهبت معه...

عندما وصلت إلى الأستاذ علي..... وجدته ذلك الشاب الوقور الوسيم..... فاســتقبلني أحسن اســتقبال.... كان في أواخر الثلاثينات من عمره.... عمل مديراً في هذه المدرسة منذ تخرجه من الدفعة التي تخـرجت قبلنا بعدة سنوات..... يوجد بالمدرسة أيضًا ثلاثة مدرسين سعوديين من أماكن قريبة من مقر المدرسة..... يأتون إليها بالســـيارة كل يوم..... وفيها ثلاثة من المدرسين الأردنيين أو الفلسطينيين اثنان منهما يسكنان في بيت قريب من المدرسة.. أما الثالث فيسكن في بيت وحده مع عائلته وقيل لي إن له فترة ليست بالقليلة في هذه المدرسة..

طلب مني الأستاذ علي أن اسكن معه بضعة أيام حتى يبحث معي عن مكان اسكن فيه... وذهبنا بسيارته إلى المدرسة وأخذت فراشي وعدت معه...

بالقرب من المسجد هناك متجر يقوم فيه العامل (سرور) الهندي بالبيع والشراء فهو متجر يفي بمتطلبات أهل الوادي... فيه مواد غذائية وبعض الأحـذية والملابس... وبجانبـه كميات من الأعلاف والبراميل التي يحتاجها الناس في حياتهم في هذه المنطقة..

بحثت عن بيت اسكن فيه لوحدي فقد رأيت أن مدير المدرسة يريد أن يبقى في سكنه منفردًا.. وقد توفقت في سكن ملائم جدًا وكان من الطوب الإسمنتي ومسقوف بألواح من الزنك وعازل حراري.....

وفي اليوم التالي وعندما ذهبت إلى المدرسة قابلت المدرسين والطلاب..... كان الجدول الدراسي قد تم تقسيمه على المدرسين ولم يبقى إلا مدرس الصف الثاني فقيل لي هذا جدولك وأنت مدرس الصف الثاني... ذهبت إلى الفصل فوجدت به عدد كبير من التلاميذ تختلف أعمارهم فيهم الكبير والصغير.....

أغلب التلاميذ كبار في السن أي فوق سن العاشرة لذلك كانوا يفهمون الدرس بسرعة.....

وبدأت الدراسة..

وكان تجاوب الطلاب وتعاملهم معي إيجابيًا جدًا وارتحت للمدرسة وطلابها والحي الذي يضمنا جميعًا..

كنت في أوقات الفسح أصغي إلى أحاديث الزملاء دون أن أتكلم إلا نادرًا..... غير أنني وجدت أنهم جميعًا بينهم من الألفة والمحبة ما أثلج صدري وعرفت أن الله قد اختار لي الرفقة الطيبة..... وكنت أصغي إلى كلامهم دون أن أشاركهم الحديث...

مقر سكني عبارة عن غرفة ومطبخ وحمام يخرج في ساحة مفتوحة تصل إلى الطريق الترابي (السيل) الذي يوصل للمدرسة....

صاحب البيت الذي سكنت فيه يعيش بعائلته في بيت قريب مني جدًا... وهو أيضًا من الطوب والزنك إلا أنه كبير جدًا.... بجانبه حظيرة أغنام كبيرة وبها قطعان من الغنم والماعز وكذلك حظائر دجاج... وبالقرب من هذا كله يملك مزرعة كبيرة بجانب المنزل.. وبيت شعر أيضًا....

.. أحيانًا الهدوء الذي يخيــم على الأرض ومن عليها..... يقطع هذا السكون أصوات بعض الماشـية بعد عودتها من المراعي آخر النهار وصوت نباح الكلاب في كل ساعة من الليل والنهار.

المذياع في مكان سكني هو أنيسي في هذا الوادي..... وكنت أخرج أمام البيت وارفع الصوت لكي أكسر الهدوء المخيف الذي يخيم عليّ.....

مساءً... الشمس تتدلى للالتصاق بالأرض ورطوبة المساء المنعشة بدأت تلف البيوت لتمتص منها وهيج النهار ومواشي القرية

تغادر مراعيها للعودة إلى حظائرها وكبار السن أمام أبواب البيوت والطيور تبحث عن مبيتها فوق الأشجار أو داخلها....

الحمير ضرورية لكل بيت..... فهي وسيلة رئيسية للحياة في هذه المنطقة فعليها يتم جلب الحطب والماء إن لزم الأمر لبعضهم وعليها يذهب الناس بحبوبهم إلى الطاحون الذي يقع في طرف القرية... كذلك أمتعتهم وأغراضهم التي يحتاجونها في مزارعهم.....

وكذلك الجمال إلا أن استخدامهم للحمير كان أكثر....

في الصباح تخرج الأغنام من الحظائر في جلبة، محدثة غبارًا كثيفًا ووراءها، الراعي بيده اليمنى عصاة يسوق بها الغنم وبكتفه اليسرى يحمل مثل الحقيبة بها زاده والماء الذي يحتاج إليه...

. في هذه القرية مستوصف ومركز شرطة...

..... كانت حياتهم رغم قساوتها إلا أنني أرى أنهم مرتاحون..... بيت الشعر يكون فراشه غالبًا من ما ينتجه أهل البيت.... فالنساء عليهن إعداد الأكل وصناعة الفرش التي يجلسون عليها.... والتي يلبسونها أو يتغطون بها عند النوم..... وهي عادة ما تصنع من صوف الغنم وشعر الماعز أما الإضاءة فهي لا زالت بدائية..... وهي تعتمد على الأتريك والفانوس التي تضاء بالكيروسين..... والنار دائمًا توقد في طرف بيت الشعر وهم على ذلك يطبخون عليها أكلهم وهي أيضًا وسيلة تدفئة

وإنارة في وقت واحد..... واغلب اعتمادهم في الحياة على الأغنـــام فيـــأخذوا منها اللـــحم والحليب والصوف..... وأحيانًا يأخذون بعضها إلى الأسواق القريبة ويبتاعونها ويقاضون بها بعض السلع التي يحتاجون إليها في حياتهم....

كنت اشعر بالخوف في الأيام الأولى لسكني وحدي في هذه الغرفة وخصوصًا أثناء الليل فأنا لم أتعود أن أنام في بيت منفرد عن عائلتي وكنت اشعر أن الخوف يتسرب إلى مفاصلي...

كانت تلك الوهلة الأولى التي أنام فيها في بيت لوحدي..... وكنت أتلفت هنا وهناك وأتأكد من إغلاق الباب والنافذة وكنت إذا ألقيت نفسي على الفراش أتحسس لكل حركة خارج الغرفة أو داخلها أو صوت لكنني نمت في الليلة الأولى والثانية والثالثة وشعرت بالطمأنينة بعد ذلك.... في اليوم الأول استيقظت صباحًا كنت أتحسس ما حولي وأنهض من فراشي وأخرج إلى خارج الغرفة... وكأنني كنت مسجونًا واضعًا منشفة على كتفي..... داعبني نور الصباح بنسماته..... نظرت إلى العصافير الملونة على الشجرة التي كانت في فناء البيت المجاور لسكني. فأسعدني ذلك..

كنت لا أعرف أحدًا في الوادي إلاّ صاحب البيت ومدير المدرسة وحارس المدرسة أيضًا وكلًا منهم مشغول بنفسه وكنت لا أجرؤ أن أذهب إلى أحد.. كي استأنس معه أو اقضي معه بعض الوقت...

يزيد الخوف من الضغط عليّ وأنا استقبل الغروب حتى يأتي الصباح.... فأخرج إلى خارج الغرفة وأراقب حركة الناس وهم في حركة دائبة من وقت طلوع الشمس أو قبل ذلك بقليل... كلًا يذهب إلى عمله ومزرعته..

الضفادع في الوادي تتعالى أصواتها مستبشرةً مثلي بقدوم النهار وانقضاء الليل..... تتعالى أصواتها من بعض المستنقعات ومن بين الأعشاب...

احتفل بي زملائي المدرسين وعملوا لي وجبة غداء في المدرسة بعد انتهاء الدوام..... كنت آكل صامتًا... لم أجرؤ أن أساهم في أحاديثهم أو تبادلهم المزاح والضحك..... حتى وإن أعجبني بعض ما أسمعه فإن ضحكتي كانت باردة وضعيفة..... ثم شكرتهم وغادرنا المدرسة جميعًا..

وتمر الأيام..... وارتحت لعملي وكذلك مكان سكني..... وكنت أحب أن أعود إلى المدرسة أحيانًا بعد صلاة العصر.... لأمارس لعبة كرة الطائرة. مع بعض الطلاب..... وقد أخذت مدرستنا أحد المراكز الأولى في تصفيات كرة الطائرة فقد كان لنا المركز الثاني على مستوى قطاع المنطقة التعليمية التي نتبع لها....

.... كونت صداقة مع الشباب اللذين يشاركوني في لعب كرة

الطائرة..... وكنت أنا مدرس الرياضة البدنية في المدرسة بعد أن انتقل منها المدرس الذي كان يقوم بذلك واستلم مدرس آخر تدريس الصف الثاني.....

كان مكان سكني... مهوى شباب الوادي والزائرين له خصوصًا من بعد صلاة العشاء..... وأصبحنا من أهل الواجب عند سكان القرية فعند المناسبات لابد أن يتم دعوتنا نحن المدرسين ويشعرونا بالاهتمام والحفاوة.... وكان الزائر إليها من غير ساكنيها لا ينزل إلا عندي.... كذلك المسافرين من أهل القرية اللذين يعودون إلى القرية في إجازاتهم. لا يجدون مكان يستأنسون فيه إلا عندي..... ولم أعد اشتاق لأهلي كثيرًا... ولا أريد أن تنتهي السنة الدراسية....

طلب مني الأستاذ علي أن أكون مراقب المدرسة. بالإضافة إلى تدريس التربية البدنية..... ويعتبر المراقب مرشد طلابي كما أنه يعنى بحضور وغياب الطلاب وموعد بداية الحصص ونهايتها وطابور الصباح وكل ما يخص الطلاب خارج الفصل الدراسي. أو داخله..

الجيران كانوا يقدمون لي الألبان والجبن والسمن مجانًا أما الماء فكان أحد الجيران يقوم بتأمينه مقابل أجر أدفعه إليه وهو غير صاحب البيت الذي اسكن فيه.... وكانوا يجلبونه من نبع في الوادي القريب من البيوت.....

وتمر الأيام وتذهب عني تلك الوحشة التي كنت أحس بها عند قدومي إلى المدرسة. وكانت علاقتي مع الأستاذ علي مدير المدرسة في أحسن حال.... لكنني أراه دائمًا يكتنز أسرارًا عميقة... لا يريد أن يطلعني عليها وأنا كذلك لا أسأله عنها.

كان أهل القرية جميعهم يثقون به ثقةً عمياء فإذا غاب إمام المسجد فإنه ينوب عنه ويصلي بالمصلين حتى في صلاة الجمعة....

صاحب البيت الذي اسكن في بيته.... حمود الصافي..... كان يعمل في إدارة التعليم في المدينة.... لكنه وبعد أن بلغ السن النظامي تقاعد من عمله وبنى المنزل الذي يسكن فيه..... ويقيم فيه مع عائلته... وبنى أمامه بيت شعر كبير أيضًا.....

كثيرًا ما كان يزورنا شخص يدعى أبو فيصل وكان يتخذ مكان سكني محطة.... ينزل عندي..... ثم يذهب إلى أحد البيوت المجاورة ونمى إلى علمي أنه خطب أحد بنات هذه القرية ويأتي إليها بالهدايا والملابس في فترات متفاوتة.....

كان أبو فيصل مدير دائرة بالمدينة وكان كثير التردد على وادي السدرة وتعرف على أحد سكان الوادي فخطب ابنتهم وقبلوا خطبته لها..... لكنه لم يكتب كتابه عليها بعد.... وكانت البنت المخطوبة تأجل كتب الكتاب من حين إلى آخر..... وفي تلك الليلة..... جاء أبو فيصل يطلبهم تحديد موعد الزواج.....

أتى أبو فيصل إلى السكن ومعه مرافق له وبعد أن ارتاح عدنا قليلًا. أبلغنا رسالة... أننا مدعوون للعشاء معهم عند الرجل الذي خطب ابنتهم وذهبنا معهم أنا ومدير المدرسة الأستاذ علي.....

استقبلنا صاحب الدعوة في بيت شعر بجانب بيته أحسن استقبال مع الضيوف.....

بعد العشاء ونحن في جلسة ممتعة قامت فتاة من خلف رواق بيت الشعر ونادت الضيف باسمه....

- يا أبو فيصل....

- نعم.. لبيك...

(ساد صمت رهيب)

- أنت تريدني زوجه لك.... وأنا والله ما أريدك.... إنما أهلي يغصبون عليّ.... فيا ابن الحلال أسألك الله أن لا تجبرني على شيء ما أريده.....

- من أنت يا بنت الحلال....؟

- أنا غزالة....

- أنا ما أصدق... اكشفي عن وجهك حتى أتأكد..

- هذه أنا.... وكشفت عن وجهها أمامنا جميعًا....

- ابشري يا بنت الناس... أنت في حل....

كـنا جلوس كلنا.... وكأن على رؤوسـنا الطير... كانت كلماتها كافية لإفساد جو السعادة والبهجة العارمة التي جاء من أجلها أبو فيصل.....

قبل بضع دقائق كان عمها يبتسم متشجعًا..... فتلاقت عيناه بعيني أبو فيصل.. من الذهول.. بعد كلامها...؟

بدى على وجه أبو فيصل أثر الانفعال وتأثره برفضها له.....

وملامح وجهه قد انعكست بوضوح على حركات رأسه وكثرة تطلعه شامخًا إلى الأعلى. اعتدلت قامته بشكل ملحوظ، وارتفع رأسه وتراجعت كتفاه للوراء..... لفتت هذه الحركة البسيطة نظر الحاضرين على الفور فظهر التوتر مرتسمًا على وجهه، وعضلات فكه منقبضة،.. وغادر الرجل المكان ونحن جالسون لم ينطق أيًّا منّا بكلمة واحدة...

أما أبوها صاحب البيت فقد أصفر وجهه وركبه من الخجل مالا يمكن أن أصفه.... وخرج معهم عندما غادروا البيت ولم يعد ألينا.....

أما هي فيظهر من كلامها أنه لم يكن هذا هو الرجل الذي تمنته... لقد تحول حلمها إلى كابوس كأنه مخلوق قاسي الملامح تكرهه وتكره الأرض التي يمشي عليها حتى هذه اللحظة وترى أنها قد قشعت عن صدرها حملًا ثقيلًا..

ارتعشت عند التلفظ باسمه أمامنا وكذلك أمام النساء اللاتي كن موجودات في تلك الليلة بحضرتها ولم تدر ما إذا كانت أي منهن ستقدم لها بعضًا من الدعم فقد خافت من الانهيار... وبعينيها الهائمتين رأت والدها في صدر المجلس وقد علا الاحمرار وجهه. وتذكرت ببؤس أن والدها لم يكن يريد لهذا الزواج أن يتم..... وقد حذرها من ربط حياتها برجل بمواصفات أبو فيصل وسمعته. ولكنها كانت رغبة والدتها....

ثم غادرت أنا والأستاذ علي وبقية الحاضرين.. ونحن نتمنى أننا لم نحضر هذه المسرحية...

وبعد ذلك بيومين أو ثلاثة أيام قال لي سالم الحمدان (أحد طلاب المدرسة وكان من الطلاب المقربين إليّ) ونحن نمارس لعبة كرة الطائرة... وكان معنا في العشاء في تلك الليلة..

- أقول لك يا أستاذ سر..؟

- قول....

- البنت تريدك أنت..

- أنا..؟...

- نعم.... إنها تقول ذلك للبنات عندما يذهبون لإحضار الماء..

- صحيح..؟... أنت متأكد من هذا الكلام.؟...

- متأكد..... أختي قالت لي ذلك....

- أنا ما أصدقك...

- بل هذا الكلام صحيح...

- يمكن...

- هي التي تأتي إليك بالماء كل يوم. أليس كذلك...؟

- نعم.... لا تقل هذا الكلام لأحد...

- هي.. قالت ذلك للبنات كلهم...

- وكيف تريدني أن أصدقك..؟

- غدًا... أنت تكون في البيت في الوقت الذي تحضر فيه الماء ولعلك تسمع هذا الكلام منها....

في اليوم التالي تظاهرت لمدير المدرسة.. إنني مريض. وبقيت في البيت..... وعند الساعة العاشرة صباحًا تقريبًا.. وإذا بالبنت داخلة عليّ محملةً بقربة ماء على ظهرها... التي تحضرها كل يوم... عندما دخلت كنت على فراشي وتظاهرت بالمرض... وأتت إليّ.. وسألتني....

- إيش فيك يا أستاذ..؟

- تعبان قليل....

- ما رحت المدرسة..؟

- قلت لك تعبان.. (كنت أكلمها وأنا ملتحّف بطانية وأنا متمدد على فراشي ولم يظهر إلا رأسي)...

- أفطرت أو اعمل لك الفطور..؟....

- بل أفطرت..

- أريد أن أتحدث معك.....

- في ماذا...؟

- أنت متزوج...

- لا..

- أريدك أن تتزوجني..

- أنا لا أفكر في الزواج الآن...

- اعملها خدمة لي... لو تعرف قصتي لصعب عليك أمري..

- لم لا تتزوجين ذلك الرجل الذي خطبك بالأمس..؟

- أنت لا تعرفه.... إنه تاجر مخدرات...

- لا أعرفه..... ولا أريد أن أعرف شيء عنه.. قولي ذلك لأبوك...

- هذا ليس أبي... إنه عمي.. أنا يتيمة..

ثم قالت: أرجو أن تفكر في كلامي هذا.. لا أريدك أن تجيب الآن.. دع لنفسك فرصة.. المهم أن تفهمني.

ثم تركتني وخرجت.....

فارقتني غزالة وبقيت اضرب أخماسًا بأسداس. وتداخلت في رأسي أفكارًا لا قبل لي بها من كل حدب وصوب.... فأنا من ناحية أعلم أن أهلي يريدون مني أن أتزوج من بنات أقاربنا.... رغم أنه لم يتم شيء حتى الآن..... واعلم علم اليقين أن أهلي لن يوافقوا على زواجي من هذه البنت أبدًا..... ومن جهة أخرى فإن أبو فيصل قد يحسب

أنني أنا الذي أغويتها عليه.... ومن جهة ثالثة أشفقت على البنت عندما صارحتني واختارتني أن أكون عريسًا لها.

تداخلت الأمور عليّ ولم أعد أنشد إلا الهداية من الله لما فيه الخير.

كنت استعيد كلام تلك البنت التي خطبتني من نفسي فأشفق عليها لكن هناك أشباح تراودني إذا ما قبلت ذلك العرض الذي قدمته لي.

فأول ما سيقال عني أنني في الوادي وفي المدرسة أنني أنا الذي أغويتها عن خطيبها الذي رفضته..... حيث أنها هي التي تأتي إليّ بالماء كل يوم.... ثم إن الرجل الذي رفضته أيضًا لن يترك هذا الأمر يمر مرور الكرام... ولابد أنه سيحاول الانتقام مني.... بل سينتقم مني اشد انتقام.... سيما وأنها قد قالت لي أنه تاجر مخدرات..... كما أن والدها أو عمها لا أعرفه..... وقد يظن بي سوءًا.... بل كل أهل القرية سيقولون ذلك.....

توقعت صدق قولها ورغبتها في الزواج مني وأنا كذلك انتقلت من إشفاقي عليها إلى بداية حب لها..... فهي جميلة في عنفوان صباها وشبابها... تشعر إذا مشت أنك أمام فرس جامحة قد طغى عليها فراسة البادية وسماحة الأرياف.... فالبنت لم تقل ما قالته إلا وهي تظن أنني لن اخذلها..

كنت كلما حاولت أن اطرد هذه الأفكار من رأسي لا املك إلا أن أعود إليها........ ولا املك إلا أن استعيد كلامها فأحيانا أقول لنفسي إنها استغاثة ولن اخذلها أبدًا لكنني أخاف من كثرة المشاكل بل المصائب التي سوف ألقاها.......

كانت قرية وادي السدرة بدائية... إلا أن الحياة فيها لم تكن على قدر كبير من السوء، فهي ذات مناخ جميل، وطقس معتدل ومناظر طبيعية خلاَّبة. ففي الصيف تنساب النسائم الرقيقة، القادمة من خلال البساتين وأشجار السدر والأشجار الشوكية المنتشرة في حوض الوادي، فترطب الأجواء حول منازلها الوادعة. وفي الشتاء تكسو سماءها الغيوم، وتهطل الأمطار بوفرة مبشرة بقدوم الخير والخصب. يحلو لنا، عندئذ، أن ندلف خارج منازلنا تحت وابل المطر الغزير،.

بجوار المدرسة تمامًا تقع المقبرة التي لم تكن توحي بالوحشة.... يخترقها طريق يفضي إلى الفضاء من جهة الشرق.. فضاء المدرسة لا حرم له.... ولعلنا وجدنا في هذا الأمر بعض المشاكل في ابتعاد بعض التلاميذ في أوقات الفسح...

قبل الغروب يرتفع صوت الغناء من راديو جارنا أبو مسفر وتجاوز الصوت أوراق السدر..... ألحان وأغاني ما يطلبه المستمعون وأحيانًا سماع الأخبار وكل الجيران يعلمون أن هذه الإذاعة من عنده.... تلك اللحظات التي يعيشها الرجل هي ساعة صفاء قلما يجدها أمثاله من أهل الوادي..

عندما سال وادي السدرة قبل بضعة أيام جرف معه أكداس من العلب الفارغة..... مئات الصفائح الصدئة.... أعواد حطب مختلفة الأحجام والمقاسات... أواني طعام محطمة.... مخلفات البهائم..... جمعها السيل من أماكن بعيدة وبقيت على أطراف الوادي.. بعد سيلانه الأسبوع الماضي.... وغدى الطريق إلى المدرسة وعرًا خصوصًا للسيارات الصغيرة....

وكان سكان الوادي يلجؤون في الشتاء حين ترتفع المياه، وتستولي بأوحالها على قسم كبير من مجرى السيل وما حوله إلى وضع أحجار ثقيلة على مسافات متقاربة كي يتمكنوا عن طريقها من التنقل من مكان إلى آخر وبالذات طلاب المدرسة.. فأحيانا يبقى النبع الذي يجري من أعلى الوادي أسابيع وأحيانا أكثر من شهر.....

وحدها أشجار السدر استطاعت أن تردّ للسيل الصفعات رغم الغثاء الذي جلل لحاءها، ولوى أعناق المزروعات التي لاذت بها...

كان السيل ينثر زبَدَه كثورٍ هائج عندما يسيل يسحب في طريقه كل شيء، والناس رجالًا ونساء وأطفال يتابعون سطوة السيل في مجراه العريض.....

في الصباح كنت خارج مبنى المدرسة أتابع دخول الطلاب وعبورهم الوادي الذي حفر السيل به أخاديد وحفر عميقة وأتابع

دخولهم للصفوف الدراسية وقد حضر كثير من أولياء الأمور مع أبنائهم حتى دخلوا إلى مبنى المدرسة.. ادلف الأطفال مسرعين إلى فصولهم والمدرسين يتابعون..... كل مدرس مع تلاميذه حتى طابور الصباح لم يمكن ضمن الأولويات في تلك الأيام بل كان المدرس الموكل بالإذاعة المدرسية يطلب من الطلاب التوجه إلى الفصول وعدم انتظار طابور الصباح...

البريد في وادي السدرة لا يأتي إلا يوم الجمعة.. فهناك متعهد يأتي بالبريد في يوم الجمعة ويسلمه إلى موظف البريد في القرية..... الذي كان يملك متجرًا كبيرًا في أسفل الوادي..... أما الصحف والمجلات فلا مجال للوصول إليها إلا بمن يذهب للطائف ويحضرها معه.....

بعد بدء الدراسة بحوالي شهر ونصف تقريبًا وكان الوقت بعد صلاة العشاء إذا وأنا اسمع في البيت المجاور (بيت جارنا حمود الصافي) أصوات بكاء وكذلك حركة رجال ونساء في فناء المنزل المجاور فخرجت استطلع الموضوع لكنني لم افهم شيء وظننت أن جارنا لديه مناسبة عشاء....

كثير من النساء يدخلن إلى البيت ورجال واقفون في الساحة وكأن على رؤوسهم الطير فأخذت أشك في الأمر لكنني عدت إلى غرفتي.... الأصوات كانت تزداد والحركة أيضًا.... فخرجت مرة أخرى وسألت طفل كان في ساحة البيت واخبرني أن رجل اسمه إبراهيم قد قتل ولا يعلمون من قتله..

وهنا حضرت الشرطة ودخلت الجنازة إلى البيت وأفراد الشرطة يبعدون أهالي الوادي عن البيت.... وقد استدعوا طبيب المستوصف من بيته ودخل معهم إلى البيت..... وطلب مني أحد رجال الأمن أن أدخل إلى غرفتي ولا استقبل أحدًا من الأهالي.... وأن لا يكن هناك تجمعات خارج الغرفة أو داخلها ففعلت..... واستمر الحال كذلك حتى وقت متأخر من الليل.... ثم أخذت الجنازة إلى مركز الشرطة....

وفي الصباح تم إشعار المصلين في المسجد أن دفن الجنازة سيكون بعد صلاه العصر.....

امتلاء المسجد الجامع الكبير قبل آذان العصر..... وحضر الناس من أهالي الوادي وغيرهم من المناطق المجاورة وقبل صلاة العصر كان عدد الحاضرين خارج المسجد أكثر من اللذين كانوا داخل المسجد.....

حضرت أعداد كبيرة جدًا من الشرطة.... وكان العدد الكبير من رجال الأمن يوحي أن هناك إمدادات من رجال الشرطة أتوا بأعداد كبيرة من خارج الوادي.....

وبعد صلاة العصر كان أفراد الشرطة قد غيروا فكرتهم عن الصلاة على الميت..... وطلبوا من الناس التوجه إلى المقبرة حيث ستكون الصلاة على الجنازة هناك بعد انقضاء صلاة العصر..... وتحرك الناس إلى المقبرة سـيرًا على الأقدام حيث أن المكان ليس بعيدا كثيرًا عن المسجد....

وتأخرت الجثة وانتظرنا أكثر من ساعة بعد الصلاة واتى النعش يحمله عددًا من أفراد الشرطة وأقارب الميت.

دخلت الجثة المقبرة، بعد طريق مليء بالحسرات والوحشة والرهبة تجلل المكان والشمس المتدلية بحرارتها القوية على رؤوس

المشيعين تجلد إحساسهم بالنقمة على القاتل المجرم... وهم في هلع يتراكم بين أيديهم وأرجلهم يترحمون على الميت.....

.. وتمت الصلاة عليه والتف أفراد الشرطة حول القبر... ولم يسمحوا بالوقوف على الدفن إلا لأعداد قليلة من أقارب الميت....

توزع الناس، منهم من انشغل بقراءة الفاتحة على قبر قريب أو عزيز، ومنهم من التجأ إلى سور المقبرة أو ظل شجرة ليشعل سجارة ومنهم من بدأ يخمّن مع من حوله من هو القاتل ولماذا قتل...؟

قبل دقائق فقط، كان جسده مسجى فوق الأرض، يستعد للهبوط ببطنها... كان شيئًا مدركًا، محسوسًا، ملموسًا، لكنه وبعد دقائق قليلة سينتقل إلى القبر ثم لا نعرف عنه شيئًا.

نحيا بين الناس باندفاع حب الحياة، وحلاوة الوجود، وتختلط بأحداقنا الصور والأحداث والأشياء..... بفرح وحزن متلازمان، فما هي إلا لحظات حتى ينقطع التفكير..... في لحظة تقف مسيرة أعوام طويلة على حافة هذا القبر...

ربما أن القاتل يكون بيننا الآن أو يجلس الآن في ساعات صفاء وأمامه كوب من القهوة، وبلادة تفكير.. وزهوًا بالنصر الذي حققه..... يجلس ليفكر ويخطط كيف سيذبح إنسانًا آخر من الوريد إلى الوريد..... ثم ينهض ليغط بنوم عميق، وحين يصحو يتناول وجبة إفطار دسمة، ثم يخرج.. فيجد ضحيته تدخل في قبرًا آخر...

تساؤلات واستفسارات كنت أشاهد الوجوه تنطق بها.... كانت الجثة تعود لتلتصق ببصري وبصيرتي، وكانت أفكاري تمتزج بصورة مربكة متوترة في مخزون الذاكرة الذي ينهض أحيانا ليجلدني بتساؤلات غريبة.

كيف يمكن لإنسان أن يقتل... وبدم بارد وأعصاب باردة متجلدة إنسانًا مهما كان السبب...؟

لكن القاتل كان قد انسلخ من كل المبادئ والقيم التي يتمتع بها غيره من الأسوياء... يجامع زوجته لينجب ولدًا يعلمه عن البطولة التي يرى أنها بطولة.....

المقبرة تلتهب، والناس الذين كانوا على انتظار الخلاص من الدفن، أصبحوا يتململون..... منهم من هاجت خواطره للظل..... ومنهم من كان يحلم بقيلولة تريحه من عناء الحر وعناء العرق الملتصق بالملابس... وكأن الميت لم يكن قبل قليل ينقلهم من عالم الوعي المركز في الدنيا إلى عالم مهيب... مغلف برهبة الغموض والمجهول... لكن كل شخص هنا يعلم أنه سيكون فوق دكة الغسل بعد أيام قبل أن ينزل إلى تلك الحفرة...

جلست في طرف المقبرة..... سكون مخيف. قبور درست ولم يتبق منها إلا حجارة صغيرة تكاد لا يبان لها أثر. وقبور جديدة محاطة بطوب على شكل مستطيل ممتلئ بالأتربة وقبور كثيرة ضاعت شواهدها واندرست معالمها.....

أترى.. من يسكن هذه القبور يسمعنا.... حاولت التكلم، غصت أحرفي في فمي. لم أستطع الكلام..

حشد كبير وجد في جنازته للتعبير عن فجيعة أذهلت كل سكان الوادي..... شيع مصحوبًا بالثناء والإشادة.. أسرع النعش به بصورة مذهلة كعصفور قاصدًا عشه أو مسافرًا يسعى للعودة إلى بيته..

عند القبور تهون الدنيا.... ففي اللحد يستوي ما نتقاتل عليه وما نزهده.. ففقط بنظرة إلى كل تلك الحفرة وشواهد القبور المتلاصقة استشعرت قيمة أني ما زلت حيًا.... وأدركت قيمة تلك الفرصة التي لا يحظى بها كل من يحضر معنا هنا..... ولعلنا ندرك أن في تلك الحفرة الصغيرة سيسجن بها ذلك الجسد إلى يوم الدين... وسواء عاش هذا الجسد في ترف أو في فقر مدقع...

أثناء الدفن وبين الجموع الغفيرة التي حضرت للصلاة على الجنازة كان هناك صوت جهوري قريب مني يعرفه أهل وادي السدرة تمامًا إنه صوت العامل الزراعي المصري (حسنين) ذلك الرجل الذي قضى أكثر من خمس سنوات في مزارع السيد مرزوق.... وعرف عنه الصدق والأمانة ومساعدة الناس... بدأ وهو يقف قريبًا مني وكأنه دخل مرحلة الانتقال من الدنيا إلى الآخرة... كانت نظراته الحادة وهي تسدد نحو المقبرة تبدو هائجة والناس ينظرون إليه على أنه جريح أو صديق الميت...

كان صوته يرتفع ويقول بين فترة وأخرى بصوته المرتفع (وحدوه) (الله أكبر على الظالم). (ولو بعد حين). لا يزيد عن تلك الكلمات.....

كان على حافة البكاء، حاول أن يبتعد عني، لكن الألم الذي بداخله دفعه للبقاء القسري بجانبي، لم يكن يملك من الإرادة والشجاعة ما يؤهله لأن يتكلم بأكثر من تلك الكلمات.... لكن الناس هنا لم يدركوا ما قاله في تلك الساعة...

نظرات الرجل كانت تغوص في الموت وكنت أنا ألمس ذلك بنظراتي المركزة إليه وسط الرعب المرسوم على ملامحه.... بعينيه صفار شديد اقتحم تقاسيم وجهه وسحنته..... لكنه وهذا ما يبدو بوضوح شديد... أنه يختزن غضبًا لا أعرف لمن ذلك الغضب.... لا يريد الابتعاد عني ولو خطوة واحدة... شيء ما.. كان يشده نحوي ويشدني لمتابعته.... كنت مذهولًا منه وتعاطفت معه... وكنت أنازع الهول والرعب الذي أسكنه بداخلي.. واشعر بصعوبة التقاط النفس والخوف من كل شيء...

وكانت تظهر في لهجته الغضب والحدة حتى ظن الناس أن ذلك من زيادة حزنه على جاره في المزرعة إبراهيم..... أو إنه سيقول شيئًا يطبخه في صدره ولا يستطيع بلعه..... وكان الجميع يتعاطفون معه. وبعد أن انتهت مراسم الدفن... طلبت الشرطة من الجميع الانصراف وأبقت دورية مكونة من ثلاث أفراد بالقرب من القبر مع سيارتهم الجيب وانصرف الجميع إلى بيوتهم.....

قبل الغروب كان في الطريق الترابي جِمال متجهة إلى مراحها تسير وتأكل من الأشجار الممتدة على طول الطريق غير آبهة بالمارة من البشر أو بعض السيارات التي تعبر ذلك الطريق الممتد عبر الوادي... وتمضغ في أشداقها الكبيرة أشياء وأشياء من الأشواك وبعض الأعشاب..

وبدأت مئات الضفادع،، تصدر أصواتًا كسرت به الصمت المطبق الذي كان سائدًا..

وكان الوادي في منظر عجيب يتزين بمزارع فسيحة تبهج الروح وتملأ العين سعادة وسرورًا، تفوح من تربتها وأعشابها رائحة القمح والشعير والذرة والخضار بأنواعها، وعلى مقربة من المزارع التي تحيط بالوادي غابة من الأشجار الصحراوية منها الطلح والقرض والسلم والسمر...

لينابيع الوادي عذوبة وطراوة، فهي تنبجس من أطراف الصخور ومن بين الغابة القريبة منا،

وحول هذه العيون أو الينابيع انفجرت أصوات آسرة لشدو الطيور وتغريدها، فهناك الحجل والعصافير بأنواعها وهي تهبط نحو الينابيع المنبجسة من بطن الوادي.....

أصوات الفؤوس التي بدأ أصحابها بالاحتطاب وتكسيره لإشعال نيرانهم وصوت الأغنام التي تعود من مراعيها وقد انتصبت من حركتها أركان الغبار إلى عنان السماء.. موسيقى ومنظر رائع لم أكن أعرفه من قبل..... وزادت من تعلقي وعشقي لوادي السدرة.....

كنت عندما وصلت إليها كنت أقول لنفسي... إن هذه القرية متخلّفة ومحرومة من كل الخدمات.... لا فيها... لا كهرباء.. لا تلفزيون.. كل شيء هنا ينشد السكون... لكن الأمر تغير الآن فاندمجت في مجتمع الوادي وعشقت كل شيء فيه....

هنا مسجد صغير لا يبعد كثيرًا عن موقع السكن..... لذلك كنت اشقّ طريقي في الظلام... وأصوات حشرات الليل في كل مكان.... واشعر أن في هذه القرية عددًا كبيرًا من السكان..... وإن كان لا يحضر المسجد منهم إلا قليل..... لكن البيوت متناثرة في بطن الوادي وعلى الجبال المحيطة به وهي كثيرة ويدل على ذلك أيضًا أعداد الطلاب الذين يحضرون إلى المدرسة وكثيرًا ما كنت أمشي حتى أظن أنه لم يعد هناك مساكن أو بيوت شعر.. لكنني أرى إنها لا تنتهي.

جلست خارج البيت بعد أن صليت الفجر في المسجد ذات يوم.. أمام مقر سكني وقبل أن تطلع الشمس كنت استمع إلى موسيقي من نوع مختلف عن الموسيقى التي نسمعها في الراديو..... أنه صياح الديكة من هنا وهناك..... وأصوات الطيور في أحشاء الشجر استمتعت بتلك الأصوات.... وبدأت اسمع بعد ذلك أصوات الأغنام داخل الحظائر المحيطة بالسكن والكلاب... عندما أحست بانقشاع ظلمة الليل... إنها أصوات الطبيعة بكل ما تعنيه هذه الكلمة.

عاجلني النهار بنسماته الندية العليلة نظرت إلى العصافير الملونة هنا وهناك فأخذت إفطاري وخرجت استمتع بتلك السعادة التي أشعر بها إلى خارج البيت....

يعجبني صوت المكنات الزراعية وهي تضخ الماء في المزارع..... وكنت أحب أن أدخل إلى تلك المزارع لأستمتع بالنظر إلى الماء وهو ينساب في أحواض الزراعة لكني أخشى أن ذلك ليس مسموح به فالناس يأخذون عائلاتهم إلى المزارع ليعملوا معهم في السقاية وجني الثمار.. لكنني أتوق للدخول إلى تلك المزارع.....

رآني أحد أصحاب هذه المزارع يومًا من الأيام فدعاني إليه وذهبت..... وقد كنت أتشوق إلى من يدعوني لأدخل إلى المزرعة..... ذهبت فورًا لأرى الماء الذي يجري..... واستمع إلى صوت المكينة من قريب ووقفت معه وهو يصرف الماء من حوض إلى آخر كنت سعيدًا جدًّا.

طلب من زوجته التي كانت في طرف المزرعة أن تأتي لنا بالقهوة وأتت إلينا زوجته تلك العجوز التي احسبها في الستين من عمرها..... جلسنا جميعًا وأخذ يمد لي بتمرات ويقول هذه التمرة من هذه النخلة..... وهذه الأخرى من تلك..... وكأنه يعرف كل حبة تمر من أي نخلة قطفها..... وبعد ذلك شكرته وغادرت مزرعته.

في الليل كنت أتعرض لأسراب من البعوض الذي يكاد أن يخيم على الوادي بكامله..... وكنت اقفل الأبواب من قبل صلاة المغرب واحرص دائمًا أن تكون مغلقة..... كما إنني كنت اسمع من بعض الجيران عن وجود أفاعي وعقارب تخرج ليلًا..... فقررت أن لا أخرج من بيتي إلا في حالة الضرورة القصوى.... ومعي مصباح يدوي (كشاف) حتى أرى طريقي بوضوح..... إما في النهار فلا تسأل عن الذباب ومضايقاته بطريقة لا يصدقها عقل..... فالمنطقة حارة وهذه هي طبيعة الجو أيام الصيف.... بالذات.....

كانت أغلب المنازل لها كلاب تعتبر من مقتنيات البيوت الضرورية فالكلب ينبّه صاحب البيت أن قدم أي شخص إلى البيت ويحرس الغنم ليلًا ويحمي محتويات البيت أيضًا.... كنت أسمع أصوات الكلاب في كل ناحية فلأمر هنا طبيعي..... وبعض البيوت لا تستطيع دخولها دون أن يخرج صاحب البيت ويمنعك من كلابه.

كانت زاهية قد تزوجت ابن عمها إبراهيم وهما في العشرينات من عمرهما وكانا ابنا عمومة... عاشا خمسة أعوام هي أجمل أيام عمرها.

كان يذهب إبراهيم معها إلى المزرعة..... وتبقى زاهية معه إلى آخر النهار..... فيأكلان من محاصيل المزرعة ويشعلان النار وكأنهم في عالم منفصل عن وادي السدرة بكامله.....

في يوم من الأيام كان إبراهيم قد أوقف سيارته في طريق ضيق بين مزرعته ومزرعة رجلًا من جيرانه يدعى محسن وكأن السيارة قد أعاقت مرور سيارة محسن.. فتقابلا وأخذ كل منهم يهدد صاحبه..... وكانت زاهية موجودة إلا أن ذلك الخصام لم ترى أنه سيتطور بعد ذلك.....

في أواخر أيام الربيع وأوائل أيام الصيف، وكان إبراهيم في مزرعته والحصاد قد استغرق عليه يومه كله، وقد بقي منه شطر قليل، فتحامل على نفسه، ودأب يحصد بعد حلول الظلام.

وكانت زوجته في الدار تهيء له الطعام، وكان قد أرسلها إلى البيت قبل المساء ليلحق بها بعد أن يكمل عمله،،....

كانت تنتظره في البيت، وكان طعامها جاهزًا.. فوقفت بالقرب من باب البيت ترقب طريق عودته.....

وطال انتظار الزوجة، فقصدت أهلها وأخبرتهم بأمره،

وجدوه جثة هامدة وقد نزف دمه فغاص في بركة من الدماء.

وبعد اغتيال إبراهيم ظهرت للناس قصة الخصام والتهديد له من قبل محسن... وأتهم محسن بقتل إبراهيم.

أنكر محسن كل التهم التي وجهت إليه واهتم رجال الأمن بالحادث وبدأت التحريات والبحث عن الجاني وتم التحقيق مع أغلب سكان القرية وكل ما يتناقله الناس تلك المشاجرة التي جرت بين القتيل وبين جاره في المزرعة... محسن..... لم يكن للشرطة من سبيل إلا الضغط على محسن حتى يعترف..

وهذا ما خطط له القاتل...

وكما كان إبراهيم يملأ الدار انشراحًا وفرحًا حين كان حيًا، فقد ملأها حزنًا وترحًا بعد موته.

واتشحت زاهية بالسواد، وأصبحت أيامها أشد سوادًا من ثيابها، ودأبت على التطلع إلى سير التحقيق عن مقتل زوجها وتسأل عن ذلك كل من يذهب إلى إدارة الشرطة.

واهتم رجال الأمن بالحادث، واهتم المحققون بالحادث أيضًا، وتضخمت الملفات وكثر السؤال والجواب، وأخيرًا أغلقت أيضًا القضية،

بعد أن كتب على المعاملة وتلك الملفات بالعبارة المألوفة: «الجاني موجود وهو تحت يد العدالة (محسن) ذلك الرجل المسكين الذي هدده قبل فترة.. وأغلق رجال الأمن عليه أبواب السجن متهمًا بالقتل...

هذه القضية بالذات، كانت قضية صعبة جدًا على الشرطة... القتيل ليس له عدو، وأهله لا يشتبهون بأحد، وحادث القتل جرى في جنح الظلام، والقاتل لم يترك أثرًا لجريمته، والجثة اكتشفت بعد ساعات من موتها.. ومكان حادث القتل بعيد عن القرية..

ورأت الشرطة أنه بالقبض على محسن وتوجيه التهمة له..... كفيلًا بأن ينهي حادثة تلك الجريمة وإن كان لم يعترف فسوف يأتي اليوم الذي يعترف فيه..... فهو لن يخرج من السجن حتى يعترف.

بقي محسن أكثر من شهر داخل السجن ولم يعترف بشيء فما كان من إدارة الشرطة إلا أن استعانت ببعض الضباط والمحققين من مناطق أخرى.

وتتناوب عليه جلسات المحققين وغير المحققين حتى أنه تم استدعاء طبيب المستوصف أكثر من مرة لمحاولة تضميد بعض الجروح في جسده وأخيرًا تناقل الناس أنه قد اعترف بارتكاب الجريمة..... واكتفت الشرطة بذلك وألصقت به تهمة القتل..... وهو من يأسه وقنوطه اعترف بجريمة لم يرتكبها....

تولى (سلمان) ابن أخ المقتول الذي كان يعمل في البريد في مدينة الطائف محاولة البحث عن القاتل الحقيقي. وأخذ يزورني في البيت كثيرًا وأحيانًا يقابل زوجة المغدور ويستفسر منها عن بعض الأمور التي يرى أنها سوف توصله إلى الحقيقة.

كانت زاهية كلما استرجعت تلك الأيام التي قضتها مع إبراهيم تنتابها ريح عاتية تعصف بقلبها حتى إن البيت لا يسعها فتخرج إلى الفناء وأحيانا تمشي في الطريق الترابي وكأن الأرض تدور بها والمكان لا يقبل بوجودها فيه.... خصوصًا تلك الليلة التي كانت تنتظره فيها..... لكنه لم يعد إلا محمولًا على الأكتاف بعد أن امتدت إليه يد الغدر فمات إبراهيم....

في أحد الأيام قالت لسلمان إن هناك عامل مصري كان يعمل مزارعًا عند جارهم في مزرعة مرزوق... قال لها... بعد أن تم القبض على محسن:

.... يا عمتي أنا أعلم أن هذا الرجل (محسن) والله إنه ليس القاتل لزوجك....

فقالت:

- أنت تعرف القاتل إذًا....؟

– أنا أقول إن محسن ليس القاتل.. وعليكم أن تبحثوا عن القاتل الحقيقي..... محسن ليس القاتل....

– وأين المصري.؟

– من ذلك اليوم لم أعد أراه.

– أين مزرعته..؟

– لم يعد موجودًا بها لقد بحثت عنه فلم أجده.

– أين اختفى....؟

– اسأل صاحب المزرعة.

– من صاحبها.....؟.

– يقال له مرزوق.

– أنا ذاهب إليه.

وبالفعل ذهب إلى صاحب المزرعة وعندما قابله. قال سلمان:

عندما سألت صاحب المزرعة عن العامل امتقع وجهه وتلعثم في كلامه مثل الذي خاف من شيء كان يتوقعه.. وأنكر كل شيء سألته عنه.. فقررت أن اتركه الآن ثم أعود إليه لعلني أجد عنده أملًا قد يوصلني إلى القاتل الحقيقي....

ثم ذهبنا إلى أبو زاهية (حمود الصافي) وأخبرناه بما وصلنا إليه في بحثنا عن القاتل.

كان رده علينا..... إن القاتل قد قبضت عليه الشرطة واعترف ولا داعي للخوض في أمر قد حسم من قبل الجهات الأمنية.... وأخبرناه بما قاله العامل المزارع الذي كان يعمل في المزرعة.... فقال إن المزارع لم يعد موجودًا... ولا نعرف له عنوان. وهذا الأمر قد لا يكون صحيحًا..... فطلبنا منه أن يذهب معنا إلى صاحب المزرعة... لكنه رفض ذلك وقال هذا الأمر قد حسمته الشرطة.....

كان سلمان يأتيني ويجلس معي إلى أنصاف الليالي ونحن نفكر في موضوعه ونفترض عدة افتراضات ودائمًا تتحول إلى سراب لا فائدة منه.

وأخيرًا في ليلة ظلماء اطفأ سراج آخر في وادي السدرة ومات محسن..... وطلبت الشرطة من أهل الميت استلامه ودفنه واستدل الستار بعد ذلك على جريمة قتل إبراهيم فهما الاثنان في ذمة الله.

بعد عدة شهور انتهت السنة الدراسية ورجعت إلى قريتي القريبة جدًّا من مدينة الطائف لكنني كنت مشـــدودًا إلى زيارة وادي السدرة..... وكنت أزورها بعد كل فترة وأخرى. مثلما قال الشاعر...

يردني شـــي لامني نويـــت أبعد..

مدري حنين الوله وإلا أصبحت عادة...

سمايم الشوق كم تبرق وكم ترعد

على أمنيـــات تجي بالفكـــر وراده.

حاولت أمي أن تبحث معي موضوع الزواج لكنني كنت أقنعتها إنني لا أفكر في الزواج في الوقت الحاضر..... وجلست مع والدي وطلبت منه أن يساعدني بوالدتي حتى لا تلح عليّ في أمر الزواج..... فأنا أريد أن أبقى طليقًا بعض الوقت حتى أجد المرأة المناسبة والتي أرى أنها تسعدني..... فاقتنع أبي بكلامي وظننت أنه لن يضغط عليّ في هذا الجانب ..... وكنت اشتاق كثيرًا للوادي واذهب إليه حتى أن مقر سكني فيه لم أخرج منه وبقيت أدفع أجرته حتى أثناء العطلة الصيفية.

وانتهت العطلة الصيفية وعدت إلى المدرسة وكأن وادي السدرة هو بلدي الأصلي..

فألقت عصاها واســـتقر بها النوى

كمـــا قـــر عينًـــا بالإياب المســـافر

فأنا الآن لا أريد أن انتقل منه.. وبعد عودتي إلى المدرسة تلقيت خبرًا... هز أهل الوادي جميعًا..... أن ذلك الرجل الذي خطب غزالة..... أبو فيصل.... قد تم القبض عليه وأودع السجن وحكم عليه بعشر سنوات. بتهمة ترويج وتجارة المخدرات. وأن غزالة قد تزوجت من رجل من أقاربها كان يعمل جنديًا في الجيش في تبوك. ثم فصل وعاد إلى وادي السدرة فخطبها وتزوجها.... وبعد عودتي إلى المدرسة كان زوجها مبارك قد التحق بالشرطة ويأتي إلى بيتي بصفة مستمرة وغدت تجمعني به صداقة وسهرات ورحلات...

... ذات يوم من أيام الشتاء وأنا استعيد بعض الذكريات.. بعد خروجي من المسجد بعد صلاة الفجر..

كان الصباح ما يزال ينسل خيوطه البيضاء بصعوبة من رداء الليل المدعم بغيوم كثيفة منذ أيام.... وانكماش الأرض تحت سلطة برودة محكمة... تضاعفها رياح توالي عصفها على الأشجار، فترقص رقصًا غير منتظم.. كنت جالسًا أمام غرفتي وبحكم قرب بيتي من بيت العم حمود الصافي كنت أرى زاهية جالسة على باب بيتهم واضعة وجهها بين كفيها ومسندة كوعيها على ركبتيها ورأيتها تمسح دموعًا تذرفها

بدون صوت لكن الله وحده يعلم أن في صدرها أصوات كتكسير الحجارة أو أكثر... وكنت اسأل الله أن يعينها على ما هي فيه....

بعدما تزوجت غزالة وبحكم الصداقة التي أصبحت تجمعني بزوجها مبارك كنت أحضر إلى بيتهم لزيارة مبارك وأتذكر ما قالته لي في العام الماضي عندما طلبت مني التقدم للزواج منها...، وأحسست أنني قد أدركت هزيمتي أمام نفسي.... وأبدو غير راض عن هروبي من الواقع..... ولقد كانت هواجس الخوف والتردد هي التي جعلتني أتخلي عنها.... نعم.... إنها كانت صرخة أطلقتها غزالة في وجهي وأنا لم أتلقفها... ربما أنه جبن أو قلة تقدير للحالة التي تصورتها.. رغم أنها كرّست رغبتها.. وقطعت كل المسافات بخطوة واحدة.... حتى أصبحت بلا مسافة تفصلها عني..... وأمام غريزتي التشاؤمية والخوف من القادم تناسيت قضيتها التي فجرتها في وجهي.. فكانت من نصيب مبارك... وربما كان ذلك لحسن حظها.

مع بداية السنة الدراسية كنت قد اتفقت مع صاحب البيت الذي اسكن فيه أن يبحث لي عن من يقوم بتأمين الماء إلى بيتي وقال انه سيؤمنه عن طريق أهله..

بعد موت محسن أغلق ملف القضية وبدأت حرارة الفقد تبرد شيئًا فشيئًا وبدأ الناس يتهافتون لخطبة زاهية من وادي السدرة ومن خارج الوادي أيضًا.....

كانت زاهية امرأة في أواسط العشـــرينات من عمرها وهي لم تنجب من زوجها المقتول...

قالت لي أمها ذات يوم إنها ترفض كل المتقدمين لها بعد موت زوجها إبراهيم.. فقلت لها (كلام أمها):

أنتِ ترفضين وترفضين، كل اللذين يتقدمون لك لأسباب عجيبة... وللناس ألسن وسيشاع أنك لا تريدين الزواج لعلةٍ فيك،..... أو إن بك عقدة نفسية وستظلـــين معي بالبيت، والعمر يمرّ كالبرق وتأكـــلك الأيام والسنين....،

.... فقالت إنها تكره أن ترى نفسها عروس لكل من هب ودب وأنها لن تتزوج الآن... بل ترى أنها لن تتزوج بعد إبراهيم أبدًا أو على الأقل في الوقت الحاضر...

كنت ارقبها تنتقل من غرفة إلى غرفة. (كلام أمها).. خطواتها هامسة..... ما أن تجلس، حتى تتذكر شيئًا ما كانت قد نسيت أن تفعله.. تذهب إلى غرفة أخرى... تضع الوسادة على السرير..... تذهب إلى الشرفة،... تدور وتدور.. أنني أخشى عليها من حالتها النفسية..

كنت حريصة على زواجها ولا أريد أن تربط مصيرها بكلمة الأرملة..... فالميت قد قدم إلى ربه وهو الذي يتولى نصره من ظالميه والله على كل شيء قدير..... لكن هناك شخص لم يقتنع من الرفض

من الوهلة الأولى وأخذ يكرر طلبه من أبوها.... إنه. سهيل الحافي..

(ثم انتقلت بالكلام إليّ) الوحدة يا ولدي موحشة، في بيت،..... في سجنٍ،..... في الوادي.... فوق الجبلٍ،..... في أي مكان هكذا تعلمت من الحياة..

تشعر الزاهية بأنها تتغير بشكل مضطرد. (كلام أمها) قوتها تنفلت منها..... تخونها.. الضربة القوية التي تلقتها بقتل زوجها... أحدثت ألمًا في القلب والصدر. بين فترة وأخرى تشعر بشيء ما ينغرس في صدرها..... ثم لا يلبث أن ينقلب إلى القلب..... فتحس بضعف ووهن. تقاوم وتقاوم. تحاول أن تتماسك بكل ما تملك من صبر وإرادة..... لكن الأمور أصبحت فوق طاقتها. تلتجئ للفراش.. تبكي.. تئن.. تناجي ربها.. فتزيد حالتها سوءًا. نبهتها إلى ذلك. لكن لا حيلة لها. إن ما يحدث أكبر من إرادتها. إنها تنهار تدريجيًا، ولم تعد المقاومة تجدي نفعًا.. في نهاية المطاف أقنعت نفسها بأنها في حاجة ماسة إلى راحة طويلة الأمد.. هكذا هو حظها عاثر، فلتقنع به. وتمتنع عن الزواج من كل من يطلبها إلى أن تعيد ترتيب أمورها وأفكارها... إنها لم تعد قادرة على التحمل.. حين تردد هذا الهاجس في نفسها شملها هدوء لا مثيل له، أصبحت مستسلمة لقدرها.

تشعر في قرارة نفسها أنها أبدًا لن ترى مثل زوجها.. لم تعد لديها القوة للاستمرار في التفكير فيه أو العودة إلى الوراء..

زاهية.....

أتى صوت أبيها من خلفها فالتفتت نحوه بعد أن مسحت خلسة دموعها ابتسمت له وهي تنظر إليه...

يعرف سر دموعها! لكنه يدرك أن أسئلته ستعود خائبة دون رد..

زاهية.. ما هو قرارك هل تقبلين ب سهيل..... أو لا؟

اشاحت بعينها بعيدًا في محاولة يائسة لاستجماع بقايا شجاعتها سهيل أنا اعتقد أنه هو الذي قتل إبراهيم...

كانت تستند على الحائط وتقول بصوت يشبه الهمس.

أبي من فضلك أريد أن تترك تذكيري بـ سهيل الحافي فأنا لا أطيقه.. ولن يحدث أبدًا زواجه مني..

بقايا دمعة حبيسة تلوح في عينيه تعانق دمعة منهمرة على وجنتها الذابلة فتسقط على قلبه وتترك فيه ندبة أثر احتراقه بدمعتها... كانت تسير نحوه مترنحة وقفت أمامه..... احترقت أنفاسه في صدره ولم يجبها مدت يدها وأمسكت يده وقالت من بين دموعها....

لا تفعل بي هذا أرجوك..

كانت الأيام تمر بثقلها مرة كالعلقم حزينة ومؤلمة. يمضي النهار طويلًا ويمضي الليل أطول بين دموعها وآهاتها شيء من الندم يلتهمها ويترك ما بداخلها يتآكل.....

يومًا آخر ينصت إلى صوت بكاءها الذي تظن أن أحدًا لا يسمعه حاول أن يحثها على الزواج من أي متقدم يأتي لخطبتها.. لكنها ترفض الجميع.... فوق طاولة الطعام كان يبحث معها موضوع رجل من خارج الوادي يريد أن يتقدم لخطبتها لكنها تجلس ساهمة تعبث بملعقتها في الصحن أمامها كانت مكسورة شاحبة عكس كل ما يريده منها لا تجيبه.. إنما تبتسم في إعياء وتلتهم الرز دافعة الملعقة وراء الأخرى إلى بلعومها حاولا معها طويلًا لكنها بقيت جامدة....

ود أبوها لو كان يعرف ما تقول لكنه اجزم إنها تندب فراق من فارقت بصوت متقطع وكبد تتلظى وجسد يهتز من انفعالات ما تجده.. ثم حضنتها (لا زال هذا كلام أمها) ووقفت إلى جانبها وأخبط بيدي على ظهرها..

بعد خروجها من غرفة الطعام تنفجر في البكاء ترمي بما تطاله يدها تركل قدمها في الجدار تعتصر أمعاؤها أثر مغص موجع يصاحب شعور الندم المستمر والقهر الذي لا ينتهي

تدفن رأسها في وسادتها وتصرخ حتى لا يسمعها أحد.

- هناك عريس آخر تقدم لخطبتك وافقي أرجوك. كان أبوها يسمعها الكلام من غرفة الطعام وهي تسمعه لكنها وقفت مبتعدة عنه وقالت بصبر نافذ:

أبي أرجوك اتركني الآن أنا متعبة جدًا...

تحولت ملامحه إلى الصرامة وقال بنبرة هادئة حازمة:

- أنا لن اترك ابنتي تدمر نفسها واقف أنا مكتوف الأيدي... أنا أثق إنك فتاة عاقلة ولن تهدري دموعك على شخص مات وانتهى من الدنيا كلها.. عليك أن تخرجي من هذه الحال أنا أثق بهذا الرجل.... لذا أرجوك نفذي ما أقوله..

هزت رأسها معترضة....

قال لها: أثق وأشعر أن أجلي أوشك على الانتهاء..

ثم توجهت إليه مندفعة قائلة:

- لا تقل هذا أرجوك أعدك أنني سأفكر بالأمر لكن امنحني فرصة.

- حسنًا.....

كانت تتذكر زوجها إبراهيم وابتسامته لها في كل وقت.... واليوم يتقدم لخطبتها شخص آخر غريب..... كم هي غريبة هذه الحياة وكم يمكنها أن تفاجئك حقًا! هل كانت تنتظر رجلًا فيقتحم مكانه....

كم شحبت ملامحها في هذا الأسبوع غارت عيناها وانطفأت ملامحها أي شيء فيها لم يعد يشبهها..... يا الله.... كم تغيرنا الفجيعة؟

كان خوفها من سهيل الحافي يقض مضجعها كل ليلة ألم يتآكل منه جسدها تحت تأثير صرخات عقلها الذي يدفعها بعيدًا عن الهاوية..... فلا تزداد إلا كرهًا له.... لم يقل يومًا أنه يحبها... ملتحف دائمًا بالغموض لكن يبدو لها أن كل شيء واضحًا.. إنها لا تريده وكفى.....

قلت لأبوها عندما كان جالسًا في المجلس يستعد لاستقبال زاهية ليسألها عن رأيها في ما حدثها به قبل يومين..

توقفت زاهية أمامه وهي تلهث. تنفسها يعبر عن حالة الإجهاد التي تبدو عليها. تحاول أن تتحدث، لكنها لا تستطيع استجماع قواها، طلب منها أن تجلس على الأرض حتى تسترجع أنفاسها. وقالت له

لا يجب أن تضغط عليّ يا أبي أكثر من ذلك.. اترك أمري لله وحده وسوف يأتي النصيب من حيث لا نعلم..

كنت جالسًا أمام غرفة سكني آخر النهار وقرص الشمس ينحدر من خلف الجبل المقابل لنا والشمس ترمي الشجار وحوائط المنازل بسهام أشعتها الحمراء وظلال الأشجار تمتد على أرض الوادي فأتى إليّ يعقوب وأخذ يسرد لي بعــض حكــايات الذين أتوا لخطبة أخته زاهــية وإنها رفضتهم جميعًا.... فقلت له:

– لعل قلبها لم يعد يتسع لشخص آخر يسكن مكان إبراهيم.

– نعم هذا صحيح هي تحتاج من ينقلها من هذا الوادي إلى مكان آخر يمكن أن يبعدها عن ذكريات الماضي.

– لعل الله يرزقها.

وبعد أن خرج يعقوب من عندي كنت أستعيد ما قاله لي... هي بحاجة إلى من ينقلها إلى خارج الوادي.... لعله يقصدني..

" لكنها أكبر مني سنًا...

" وأنا مرتاح جدًا في هذه المدرسة... ولا أريد أن انتقل من وادي السدرة....

" قد لا يكون يقصد ذلك...

" الطولة كشافة....

بدأت بعدها أتابع زاهية أن خرجت إلى بيتها المجاور لبيتي... وأن أتت بالماء... وكل يوم كانت تحلى في عيني أكثر من اليوم الذي قبله..... صرت أتفحّصها في لباسها وفي مشيتها وحتى في ملامح وجهها لماذا لا تكون لي أنا..... إنها جميلة وفي عز صباها وأخذت أهذي..... بأفكاري فيها لوحدي..... أخرج إلى الحوش فأتطلع إلى غرفتها في بيتها..... كنت أتصور إنها جالسة حزينة وكنت أعتقد أنني أنا استطيع إخراجها من هذا الحزن.

في ذات يوم... أتت وعلى ظهرها قربة ماء واتجهت إلى الحنفية وبدأت تفرغ فيها الماء..... انحنت..... زاد تولعي بها أكثر..... لم أكن أنظر إليها من قبل تلك النظرات.... سألتها:

- سمعت أنك خُطبت.

-.. لكنني رفضته.

- اعتدلت في جلستي ثم قلت...: أليس مناسبًا...؟

- أنا لا أريده..... ثم انصرفت مسرعة..... وكأنها لا تريد أن يطول الحديث بيننا لكنها... التفتت إلي قبل خروجها من الباب وقالت...:

- سهيل الحافي يجلس عندك..؟

- نعم إنه يأتي أحيانًا.

- أبلغه عني يا ابن الحلال أنني لا أريده.

- كيف لي أن أبلغه...؟

- أبلغه بلساني.

- سوف يقول لي كيف عرفت وأنا أخشى أن يظن بنا سوء..

- الله ينتقم منه أنا لن أتزوجه أبدًا... هذا الرجل آذانا كل يوم يجي يخطب.

- ربما عنده أمل...!

- أمل إبليس في الجنة..... ثم لوت شفتيها بسخرية ثم قالت.. أموت قبل أن يجمعني به فراش واحد.....

- ما رأي أبوك في ذلك..؟.

- أبي لن يغصبني على رجل لا أريد الارتباط به.

كان كلامها مزيج من الإحباط والمرارة والغضب والخوف أن يتزوجها ذلك الكريه الذي ترى إنها لا تقبله بل لا تقبل رؤيته....

- لعل الله يعوضك خيرًا منه....

-... إيه.. (زفرة عميقة) على الله... الله يفرجها هذا رجل سيء السمعة كل الناس هنا يكرهونه.

– لكنه ربما أنه يحبك..؟

– توردت وجنتا الفتاة وعضت شفتيها ثم قالت هو لا يحب أحدًا هذه الأشكال لا تحب أحدًا.... لا يحب إلا نفسه.

– إذًا أعقدي أمرك وارفضيه..... ولا تتركونه يذهب ويجيء.... لابد أنه عنده أمل.

– قلت لك لن يجمعني به فراش واحد حتى لو أموت.. والله إنني اعتقد أنه هو الذي قتل إبراهيم.....

ثم ابتسمت ابتسامه مرّة وهزت كتفيها بلا اكتراث وقالت...: ومن قال أنني سأتزوجه..... وانصرفت....

وأنا كنت ادعوا ربي أنها لا تتزوجه....

لم يكن لحديثها معي بهذه الطريقة معنى حتى الآن.. وهي تبدو خجلة كعذراء لم تخرج من بيتها لتواجه رجل.. أما أنا فليس بوسعي أن أفعل شيئًا أنا مستسلم.. وفي حالة تردد....

وأقول في نفسي إنها امرأة جميلة.... جميلة إلى أقصى حد. وهذا الخبيث لا يستأهلها.... وأخذت استعيد الهيئة التي أتت بها إليّ... كانت ثيابها تفصح عن ذوق دقيق.... وتنطق عيناها بروح صافية.... وأخذ لساني يتحرك في فمي بلا شعور.... وأخذت أذناي تسترجع صوتها بعذوبته ونبراته الشجية. لكنها أكبر مني وأنا لن أتزوج امرأة أكبر مني...

في الصباح ذهبت باكرًا إلى المدرسة.... وقضيت نهاري المعتاد في المدرسة وبعد عودتي.. وبينما أنا جالس أمام غرفتي...

هذه العجوز أم يعقوب قادمة تتوكَّأ على عصا من جريد النَّخل..... بيدها إناء مملوء باللبن الرَّائب قادمة إليّ..:

قالت وهي متذمِّرة بعد أن وضعت الإناء أمامي....

– ليش ما تأخذ الإناء من يدي وتريحني..

وتستدير وهي تتوكَّأ على عصاها لتمضي عائدة إلى بيتها وهي تتمتم بكلام اسمعه ولا افهمه. إنها جارتنا أم يعقوب زوجة حمود الصافي

لديها ولد هو يعقوب يبلغ من العمر ثلاث وعشرون سنة ومتزوج من قريبة له.. وزاهية التي تزوجت ابن عمها إبراهيم.....

في كل يوم، لا آخذ منها الإناء، لأني أريدها أن تضعه بجوارها وتجلس معي وتحكي لي، عن أخبار القرية بالتفصيل وآخذ منها علوم الأولين والآخرين، ولا أحب أن أوضِّح أمورا تشعر إنني أريدها أن تتحدث عنها.... وبالذات عن زاهية...

كانت زاهية خارج البيت تنظر لي بنظرة خجولة ثم تمضي وتمشي

أمام بيتها.. أحسست أن بها وساوس تجعلها تمشي في كل اتجاه دون شعور..... فيعيدني إلى تذكر امرأة كنت أراها في قريتنا جميلة جدًا لكنها مريضة.....

ركلت كرة كانت أمامها بأصابع قدمها الحافية. ومضت وكأنها تريد أن تلفت نظري..... كانت حافية بحفاء الأيام التي تعيشها فالزمن لا يرحم..... مأساتها كبيرة في فقدان زوجها الذي أحبته وعاشت معه حتى امتدت إليه يد الغدر فغيبته عنها..... أسندت ظهرها إلى جذع شجرة السدر التي كانت في فناء منزلها ونظرت إلى السماء بنظرة طويلة..... وكأنها تطلب المدد من الله على مساعدتها في تحمل ما تجده في نفسها.

كانت تتغنى بألحان لا افهمها لكنني كنت اسمع همهمة صوتها وكان يخيل لي أن صوتها حزين جدًا..... كنت واجمًا في مكاني..... وهي لم تتحرج في أن تكمل ما بدأت به دون أن تكترث بوجودي.... اختنق صوتها فجأة..... ورايتها تمد يدها إلى عيناها وكأن العبرة قد غلبتها فبكت وأنا بكيت أيضًا.... حاولت التكلم معها لكن أحرفي غصّت في فمي. فلم أستطع الكلام..... تأملتها طويلًا حينها..... اخفق قلبي ربما وأنا كنت اتبعها تقودني خطواتي أراقبها بعيني ورغم كل فضولي الجارف إلا أنني بقيت علي مسافة محايدة ولم أتحرك من مكاني...

وفي يوم آخر رأيتها تسير بسرعة.... داعب الهواء خصلات شعرها الثائرة فانحسرت عن جبهتها أطلقت زفيرًا حارقًا لتخفف قليلًا مما ازدحم بداخلها..... بهتت بشرتها البيضاء وانحفرت بها مراسم الحداد ليست وحدها ترثي ما فقدت..... فهي تكاد تشعر بأن الكون كله متواطئ مع حزنها وأنا كنت منهم أيضًا.....

حتى الهواء مثقل من حولها ممتلئ بما تبعثر منها..... كل تلك الأشياء التي داهمتها دفعة واحدة تركتها خاوية مخدرة الشعور إلا من دموع هاربة تكوي وجنتيها..... وذلك الحزن الذي يحاول قتل ما قد تبقي منها..!

إلى أي مدى ستطول هذه الحالة وإلى متى ستظل عقارب الساعة تدوي داخل جمجمتها كأنها أجراس..... تري هل تخرج من هذه الوساوس.. أحقًا.... لابد لها أن تصدق بالأمر الواقع..... وتترك اللون الأسود الذي تكرهه.....

كانت تتصور أن سهيل الحافي هو النصيب الذي يدفعها إليها القدر بقوة..... ربما. اليوم مساء يأتي لخطبتها وربما قريبًا يختنق أصبعها بخاتمه وربما تزف إليه بعد فترة... بقوة الدفع الذي يكرره على أبوها..... لكنها لن تقبله أبدًا...

خفق قلبها بقوة ونزعت يدها سريعًا وراحت تفرك في أصابعها بتوتر مستسلمة للشعور الرهيب الذي غمرها كلها....

أفاقت من شرودها وهي تحملق بالخاتم الذي كان في يدها في سخط وحنق نزعته من يدها.... كأنه يخنقها كانت ملتاعة ووجهها ينم عن غضب شديد.... ابتلعت ريقها حين شعرت أنها وحدها وأن ذلك مجرد أحلام اليقظة..

عادت لها الهواجس مرة أخرى انحبست أنفاسها... تصورت أن خاتمه في إصبعها... تعالى صوت الزغاريد مخترقا طبلة أذنها.... فكادت تصرخ هلعًا..... اختنق الهواء في رئتيها وضاعت ملامحها رفعت صوتها لا شعوريًا وخرجت من غرفتها إلى سطح البيت...

صوت الزغاريد مرة أخرى..... ثارت كل حواسها ولفحتها نيران الدموع العالقة في عينيها مكابرة..... إذ لم تعتد أن تسمح لها بالسقوط أمام الآخرين...

بعثرت نظراتها يمينًا ويسارًا كي تخرج من هذا الهاجس البغيض فالموت أقرب إليها من تحقق هذه الكوابيس.....

١٢

كان مقر سكني مأوى السامرين في الوادي فهم يأتون إلينا من كل مكان نتسامر ونمارس لعبة البلوت وأكثر الأيام اعمل لهم عشاء على حسابنا جميعًا..... وكان من ضمن السامرين العريف مبارك زوج غزالة.... واثنان من زملائه في الشرطة والممرض عمر وأيضًا سليمان ويعقوب جارنا وغيرهم من أهل الوادي.....

ذات ليلة طرق الباب علينا بعد الساعة العاشرة ليلًا تقريبًا..... مزارع مصري وطلب من أحد الموجودين قراءة رسالة أتت إليه من مصر..... ونحن جالسين... فتناول مبارك الرسالة وأخذ يقرأها بصوت جهوري إلا أنه فجأة توقف ثم طلب من المزارع اللحاق به خارج الغرفة..... وكان المطر ينزل بغزارة فذهبوا إلى سيارة مبارك وقرأ له الرسالة.... ونحن لم نلق لذلك اهتمام..... إلا أنه وبعد قليل من الوقت رجع مبارك إلينا وهو مختلف الملامح وعندما سألناه... كان جوابه إنها رسالة من أهله يخبرونه بموت أحد أقربائه..... ولم يعلق أحد منا على ذلك وأكملنا سهرتنا... وجلس العامل محمود حتى تعشى معنا.... ثم انصرف الجميع..... إلاّ مبارك.

بعد أن ذهبوا جميعًا.... اقترب مني وأخرج الرسالة من جيبه فإذا بها:

بسم الله الرحمن الرحيم:

أخي العزيز محمود..... أكتب إليك رسالتي بعد أن أعياني المرض وأنا في ذمتي شهادة لم أدلي بها..... ولم استطيع أن ابلغها بنفسي.... ولكن الأمر عليك..... وأخرجه من ذمتي إلى ذمتك أن تبلغها عني قبل أن يسألني الله يوم القيامة عن كتمان الشهادة.

أخي العزيز:

قبل أن أسافر كنت أنا وعمي مرزوق في المزرعة بعد مغرب يوم من الأيام أمام غرفتي..... وسمعنا إطلاق نار بسيط..... وخرجت أنا وعمي مرزوق إلى حيثما سمعنا إطلاق النار.... وقبل وصولنا إلى هناك رأينا سهيل الحافي هاربًا من مزرعة إبراهيم..... ثم ركب سيارته ومشى بها مسرعًا إلى أسفل الوادي.... وعرفنا عند ذلك أنه هو الذي أطلق النار على إبراهيم ولم أرى سيارته عادت إلى بيته..... إلا في اليوم التالي عندما أتى ومشى مع الناس في الجنازة.....

وعدت أنا وعمي مرزوق إلى مزرعتنا وكان بوسعنا أن نسعفه لولا امتناع عمي مرزوق.... خوفًا من سهيل الحافي.... وعندما رأى عمي مرزوق أنني سوف اخرج ما بذمتي.... وافضح المجرم.... ذهب بي إلى الجوازات وعمل لي تأشيرة خروج نهائي وسفّرني إلى مصر... وأنا قد سمعت أنه قد اتهم بذلك جارنا محسن.....

أخي... الله الله.. أن توصل كتابي هذا لمدير الشرطة وبذلك أكون قد أبريت ذمتي ولك من الله الأجر والثواب.

وضع الرسالة على الأرض وأخذنا ننظر في بعضنا لا نلوي على شيء.

- ليش أخذت الرسالة معك.

- أريد أن أسلمها غدًا لمدير الشرطة هذه شهادة قد اشتركت في سماعها.

- نعم هذا الصحيح.

- الله يرحمك يا محسن.

- كل الناس كانت تشير إلى أن سهيل الحافي هو المجرم لكنها تخاف منه....

- سوف يقع بأذن الله.

- الله على الظالم.... كنت من الناس اللذين حضروا جنازة إبراهيم وكان هذا المصري قريب مني وأخذت أقص عليه ما قاله عند القبر..

وتمر الأيام وأنا أسأل مبارك كلما تقابلنا ويقول أنه سلّم الرسالة إلى مدير الشرطة وقال لي...:

يمكن أنني أرسلك مع هذه الرسالة إلى مدير شرطة الطائف لعله يوجهنا فيما ينبغي أن نتصرف به.....

غاب عني مبارك عدة أيام ثم عاد.... وعندما سألته قال تغيرت أمور كثيرة..... فقد تحول مديرنا إلى التحقيق.... بسبب موت محسن الذي توفى في السجن..... وتم تعيين مدير جديد لوادي السدرة.... وكتب على الرسالة مذكرة مطولة.... وتم إحالتها إلى إدارة المباحث للتأكد من صحة الخبر. واستدعاء المذكور مرزوق والتحقيق معه والتحفظ عليه.

والأمر لا زال في بدايته..

- وأنت ما سألوك عن العامل الذي أعطاك الرسالة.؟

- بلى وأخبرتهم أنه محمود.

وأخذ اسمه ومكان سكنه ولابد أنهم يستدعونه ويتم التحقيق معه.

لم يكن ذلك الأمر بعيدًا فخلال أيام قليلة سمعنا أن الشرطة قد استدعت السيد مرزوق إلى شرطة الطائف ولا زال في التوقيف في شرطة الطائف.... أما محمود فقد تم استجوابه هو وبعض المزارعين في شرطة الوادي....

وتمر الأيام ونحن ننتظر النتيجة.

كان محمود قد أخبر أكثر من شخص بموضوع الرسالة..... وانتشر الخبر في الوادي..... وأصبح كل أهل الوادي ينتظرون أن

يسمعوا أخبار جديدة عن الجريمة..... حتى أن يعقوب يقول أنهم استدعوا أخته زاهية أكثر من مرة في شرطة الوادي..... وظهر أن موت محسن في السجن كان جريمة أخرى.

وفي ما أخبرني به مبارك..... أنه بعد الضغط على مرزوق اعترف برواية المصري.... وحضر مع الشرطة إلى موقع الحادث وشرح لهم ما شاهده وما سمعه..... أما سهيل الحافي فقد اختفى تمامًا...

كما أن العامل حسنين قد أشار في رسالته إلى أنه قد ذهب في اليوم التالي بعد أن رفعت الجثة إلى الموقع الذي كان به سهيل الحافي وحصل على فشق من المسدس الذي أطلق منه النار وأنه جمع ثلاث فشقات ووضعها في كيس نايلون ودفنها تحت باب الغرفة التي كان يسكن بها.... وأتت الشرطة وبحثت عنها ووجدتها فعلًا.....

ظهر للشرطة أن المسدس الذي أطلقت منه هذه الطلقات من النوع النادر جدًا.. وأنهم وجدوا المسدس في بيت سهيل الحافي..

ذات ليلة أتى إلينا مبارك ومعه مدير مركز الشرطة الجديد النقيب يوسف..... وعرفه علينا وعرفنا عليه..... وقال أنه يريد الانضمام إلى مجمعنا والسهر معنا في مقر السكن... كان شاب اجتماعي ورحبنا به وتوالت زياراته لنا وزاد تعلقه بي وزاد تعلقي به أيضًا... وأصبحنا لا نكاد نفارق بعضنا إلا في وقت الدوام...

بعد ما وصلت رسالة حسنين إلى زميله محمود وأخذ محمود يذيع الخبر في الوادي..... اختفى سهيل الحافي وانقطع خبره من الوادي.. وأتت الشرطة إلى بيته اكثر من مره يسألون عنه فلم يجدوه... وتم تفتيش البيت وأخذ جميع الأسلحة التي كانت موجودة به.... وتم التحفظ على بعض الأشياء التي وجدوها بالمنزل.... وتم مراقبة البيت لفترة ثم تركوه... والذي ظهر من هذا أنه بعدما تأكد أن الأمر قد وصل إلى الشرطة.... خرج من الوادي وربما خرج من المملكة نهائيًا.... لكن تم أخذ التعهد على أفراد عائلته أن يخبروا عنه في حالة عودته أو اتصاله بهم.

ما زالت شجرة صداقتنا أنا ومدير الشرطة تنموا باسقة..... الصداقة كالحب تمامًا نبع عطاء وواحة ترتاح فيها النفوس.. أصبحنا لا نفارق بعضنا إلا بعد صلاة العشاء وأحيانًا كنت أدعوه للمبيت معي في غرفتي، فكنا نسهر حتى منتصف الليل أو يزيد لا نتوقف خلالها عن الثرثرة...

أخذني معه إلى الطائف وجلسنا في بيت أهله مرات عديدة في عطلة نهاية الأسبوع..... إما في وادي السدرة فأصبح كأنه ساكن معي....

كان يرى زاهية أمام بيتهم أحيانًا وهو داخل إلى سكني أو خارجًا منه فعرفها وسألني عنها.

– هذه المرأة..... أليست زوجة المقتول إبراهيم؟

– بل إنها هي.

– زاهية.؟

– نعم إنها زاهية.

– قد حققت معها أكثر من مرة وهي تعرفني أيضًا.

– وجدت عندها أي معلومات.؟

– نعم واعتقد أن مدير القسم الذي سبقني لم يأخذ بأقوالها أو أنه تساهل عنها.

– كيف..؟

– تشير بدلائل كثيرة عن سهيل الحافي..... لكن.. لم أجد معه أي تحقيق في القضية.

– قصدك لم يحقق معه...؟

– نعم..... لم أجد أي دليل على التحقيق معه..

– ماذا وجدت عندها بالضبط..؟

– وجدت من كلامها أن المستفيد الوحيد من قتل زوجها هو سهيل الحافي.

– لماذا؟

- يريد أن يتزوجها.

- هي قالت ذلك..؟

- قالت أنه كان يضايقها كثيرًا ويتعرض لها في كل طريق.

- بعد مقتل إبراهيم كان يخطب فيها في كل يوم... يريد أن يتزوجها.

- هي لا تطيقه أليس كذلك...؟

- نعم هي قالت لي ذلك الكلام.

والآن وبعد ما أعترف عليه مرزوق لا أعتقد أنه يسلم.

- هو غير موجود حتى الآن.... لم نعثر عليه..

- وهل سيفلت من العقاب...؟

- نريد أن نقبض عليه أولًا...

اتركنا من سيرته..... هذه البنت زاهية.. الم تتزوج؟

- رفضت كل الخطّاب.

- تزوجها أنت..؟

- أنا...؟

- نعم أنت..

- إنها أكبر مني.... وأنا يمكن أن انتقل للعمل في مدرسة أخرى.

- ما عندك قلب.....

- لماذا..؟

- البنت تريد خيّال..... وأنت ولا على بالك.. ربما أن عينها عليك.

- الله يستر عليها..

- أخطبها أنا..؟

- بكيفك.

- إذا نفسك تتزوجها فأنت أولى.؟

- أبدًا.... أنا لا أفكر في الزواج منها. ربما إنها لا تنجب..!

- هذا المطلوب.. إذًا.. أنا أخطبها..؟

- توكل على الله.

- دعني أرتب أموري ثم أخبرك ثم نذهب أنا وأنت نخطبها.

تذكرت شيء.....

- قول..

- قالت في التحقيق أن سهيل الحافي راودها عن نفسها أكثر من مرّة وهددها في يوم من الأيام، ولكنها لم تذكر سرها لزوجها، ولا لأهلها خوفًا من الفضيحة، وخشـــية سطوة غريمها الذي يحســب له أهل الوادي ألف حساب.

وكان يتعرض لها وهي ذاهبة إلى العين الكبيرة مع لدّاتها تحمل قربة الماء أو راجعة وإذا رآها لوحدها في أي مكان يحاول أن يتعرض لها.. لكنها استعصمت وطردته وهذا دليل كبير على أنه المستفيد الوحيد من قتل زوجها.

- الله لا يوفقه.

- هذا مجرم.

- أنت تعرف أخوها؟

- مَن أخوها..؟

- هذا اللي يسهر معنا يعقوب.؟

- نعم..

- لماذا لا تكلمه...؟

- كلمه أنت..

- أنا لن اكلمه..... أنت كلمه... وتستطيع أن تسمع ما عنده وإذا احتجت إلى مساعدة... أنا أتدخل بعد ذلك....

- وهو كذلك.

ذات ليلة بعد أن امتلأت الغرفة بالسمار طلب النقيب يوسف من يعقوب الخروج معه إلى السيارة... وأخبره بما يفكر فيه وأوعده أنه

سيعمل قصارى جهده أن يقف معها في معاملتها التي في الشرطة..... وطلب منه أن يعرض هذا الموضوع على أخته ووالديه وسيكون سعيدًا من زواجه منها.... سيما أنه لم يتزوج بعد..... وسيعوضها عن فقدان من فقدت.....

في اليوم الثاني أتت إليّ أم يعقوب وإذا هي تنثر كنانتها أمامي وتسألني عن يوسف وتخبرني أنه خطب زاهية..... فأثنيت عليه خير وقلت أنه الوحيد الذي يستطيع أن يأخذ لها بالثأر من سهيل الحافي بحكم وظيفته وعمله في الشرطة وأني لا أعرف عنه إلا كل خير..

جلست قليلًا صامتة ثم التفتت إليّ بحسرة وقالت...:

كنت أريدها لك أنت..... لكن يظهر أن مالك في الطيب نصيب.

- الله يرزقها.

- قلت لك.... مالك في الطيب نصيب...

وخرجت من عندي وهي تردد ما قالته.. مالك في الطيب نصيب.... وكنت ألمّ خجلي أمامها بصعوبة... نعم إنها صادقة..... وكانت كلمـــاتها كـأنها تغرس في لحمي مثل الأشواك.. نعم إنها صعبة جدًا تلك الكلمات إلي ألقتها في حجري. وعلى كل حال... طارت زاهية من بين يدي وتزوجت من النقيب يوسف في حفلة صغيرة في المزرعة. وبقيت وحدي...

ألقيت جسدي على السرير أغمضت عيني للحظة.. ثم أفقت على صورتها.. وكنت أسأل نفسي.. كيف ضاعت من بين يديّ تلك المرآة بهذه السهولة...؟ كيف تنازلت عنها لمدير الشرطة...؟... إنها بلادة ما بعدها من بلادة نعم..... لقد طارت الطيور بأرزاقها...

فكّرت في شراء دراجة نارية وأنفقت جهدًا مضنيًا لجمع مبلغ ألف ريال لشراء دراجة نارية.....

انظر في غرفتي كل شيء متناثر بعض الأوراق المبعثرة قلم حبر.. علبه سجائر ممزقة كراسة تحضير أصابع حلويات علبة مكسرات شراريب غترة شماغ على طرف السرير.. وصوت موسيقى خفيف ينبعث من المذياع أوراق كوتشينة مبعثرة سجادة صلاة جاكت أبيض معلق على الجدار.. وكنت انظر إليها وأنا محبط لا استطيع أن أمد يدي لأنظفها.... أو أن أرتب محتوياتها...

بعد فترة طلب مني النقيب يوسف أن اترك له مكان سكني حتى تكون زاهية قريبة من أهلها ففعلت وخرجت من الغرفة التي كنت اسكن بها وسكنت في مكان قريب من المدرسة... أما يوسف فقد قام ببناء غرفتين بجوارها وأعدّها سكنًا له هو وعروسته....

تغيرت مع النقيب يوسف قناعاتٌ كثيرةٌ كان قد رتب حياته على الإيمان بها.. كانت الأيام القليلة الماضية قد حملت له من المفاجآت

ما عجز عقله عن تصديقه.. فجلس في مكتبه بقسم الشرطة شاردًا..

أسند مرفقيه على المكتب ثم دفن وجهه بين راحتيه، أغمض عينيه في يأسٍ وهو لا يدري ما القرار الذي يجب عليه اتخاذه..

سمع صوت طرقتين مهذبتين على الباب، دخل في عقبهما أحد العساكر يرتدي زيًّا مدنيًا ووقف أمامه في احترامٍ شديدٍ.. وضع جرائد اليوم أمامه بعد أن أدى له التحية ثم انصرف في خطواتٍ سريعةٍ..

«نجح في كشف كثيرًا من الغموض في قضية مقتل إبراهيم، تم تشكيل فرق بحث جنائي حققت في كل ملابسات الجريمة..

تشير عقارب الساعة للثانية عشرة ظهرًا.. شعر عقله بالتحدي لتلك الجريمة الغامضة وحتى وأن كان قد قطع شوطًا كبيرًا إلا أنه لم يتمكن من فك طلاسمها جميعًا حتى الآن ربما أن هناك شريكًا مع سهيل الحافي وربما أن الزمن سوف يظهر بعض الأمور التي لم تنبت من تربتها بعد..... لكنه قد وعد زوجته زاهية أن يأخذ لها بثأرها من سهيل الحافي... وأن يكشف لها كل أسرار الجريمة...

بجانب سكني الجديد كانت هناك غرفة كبيرة بعض الشيء للإمام عبد الرحمن وكان يجلس فيها بعد صلاه العصر يداوي ويعالج بعض المصابين بالمس أو السحر أو غير ذلك.... وكان يأخذني معه وأنا استفدت منه كثيرًا وعندما يحتاج الأمر إلى مساعدة.... فإني أقوم بذلك إما في الإمساك بالمريض أو إحضار ما يلزم له من ماء وزيت وما في حكمه... وكان جزاه الله خيرًا حريصًا على تعليمي بعض الآيات التي تقرأ على المريض ووجدت عنده كتبًا بهذا الشأن وقرأت فيها كثيرًا... وأصبحت مغرمًا بهذا العمل الذي أقوم به معه..... وكأنه عمل إضافي ينتظرني بعد الدوام في المدرسة وفي آخر كل يوم... لا ينساني من الفلوس التي يحصل عليها وبذلك أصبح دخلي من هذا العمل مغريًا وكان يقول لمن يحضر عنده إذا ما وجدتموني فالأخ خالد يقوم باللازم.... وغاب مرتين أو ثلاث وكنت استقبل الناس وأعالجهم حتى يخيل لي أنني أصبحت استطيع أن أعالج الناس لوحدي بدون الشيخ عبد الرحمن إلا أنني لا أجرؤ على ذلك خجلًا منه.

سافر مرة إلى الطائف وكنت أنا الذي أعالج الناس في غيابه وذات يوم وبعد أن ذاع صيتي في الوادي أنني أعالج المرضى..... استدعاني مدير الشرطة النقيب يوسف وقال لي أن زوجته زاهية لديها اكتئاب

وربما لو قرأت عليها أن تتحسن صحتها فوافقت.... وأبديت استعدادي لذلك سيما وأنني لم أراها منذ أن تزوجته..... لكنه اشترط عليّ أن لا ألمسها بيدي..... فقلت له... هذا لابد منه... ولكن بحضورك يمكن أن تضع منديلًا على رأسها... وأنا أضع يدي على المنديل واقرأ عليها فوافق..... وبعد صلاة المغرب ذهبت إليه وقد جهّز القهوة والتمر وبعد ذلك أتت زوجته وهي متحجبة... وفعلا وضعت على رأسها منديلًا ومددت يدي فوق المنديل وبدأت اقرأ عليها..... فجأة.... فإذا هي بدأت تضحك... أنا عندئذ خفت أن يكون بها مس.... وأن هذا الضحك ليس منها وإنما من الجان الذي متلبسها..... (كما تخيلت)..... ثم بدأ الضحك يعلو ثم تعالى صوتها بضحك شديد جدًا.... وأنا بدأت أضحك أيضًا.... وأنا اسألها ما بك..؟

ولا تجيب..... إلا إنها مستمرة في ضحك هستيري.... وأخذت أنا أضحك أيضًا معها بقوّة... والتفتّ إلى النقيب يوسف فإذا هو يضحك أيضًا.

انقطعت أنا عن القراءة وجلست بعيدًا عنها..... ثم قلت ليوسف...:

- أنا لن أكمل حتى اعرف سبب الضحك الذي تضحك منه المرأة لكنها تركتنا وقامت ودخلت إلى داخل البيت..... وبقيت مع النقيب

يوسف وأخذنا في الحديث في كل الأمور وسألته عن مرزوق وقال أن ورثة محسن قد تقدموا بدعوة ضده..... وأنهم يطالبونه بحق كتمان الشهادة التي على أثرها قد توفى محسن في السجن.... وهو يعلم أنه برئ ولم يحاول إنقاذه ويطالبونه بدية محسن الذي توفى وهو مسجون على أثر ذنب لم يقترفه.

ثم طلبت منه أن يدخل إلى غرفة زوجته ليسألها عن سبب الضحك فقام وعاد وقال أنها تعتذر منك فهي تعرفك عندما كنت ساكنًا عندهم ولم يدر بخلدها أنك ستكون معالجًا وهي ستأتي الآن لتعتذر منك.. عند ذلك أخبرته أنني خفت عندما رأيتها تضحك بتلك الطريقة أن يكون قد تلبسها جان وأنه هو الذي يضحك من فمها... وأخذت أنا وهو نضحك أكثر من ضحكي أنا وزاهية..... وأتت هي عندما سمعتنا وشرح لها يوسف الموضوع وخرجت من عندهم ولم أصف لها علاج وإنما قلت لها أن عليها تكثر من قراءة القرآن فإنه جدير أن يذهب عنها الوسواس والهموم التي تراودها..... لكنني بعدما فارقتهم أخذت استرجع صورة زاهية.... بدت لي جميلة جدًا وكأنني أراها في صورة غير الصورة التي كنت أعرفها... لا إله إلا الله.. كيف أضعتها من يدي.. (صدقت تلك العجوز... مالي في الطيب نصيب...)... كانت تعجبني بعض الأبيات التي قرأتها..

الشمس غابت وأنا عيني تخيل المخيل

ســحابة ولّــع البــرّاق بأطرافهــا

ما ودي أفارق المنظــر وجو جميل

لو ساعة الوقت بأمري قمت بإيقافها

لكن هذي مناوي والطلب مستحيل

الشمس راحت وغابت خلف مشرافها

وفي مرة أخرى أتاني رجل وبيده شاب وطلب مني أن اقرأ عليه حيث أنه قد عرضه على الشيخ عبد الرحمن فلم يستفيد منه وكنت أجد في نفسي أنني أنا استطيع ذلك.... كان الشاب في العشرينات من عمره وأخبرني والده أنه كثير الانفعال وأنه يقضي أغلب أوقاته خارج البيت وفي المزرعة..... كنت استرق النظر إلى الشاب فإذا عيونه تطفح حمرة كأنها الجمر ويعلوا الغضب على وجهه..... فقلت في نفسي لابد أن اجثوا على صدره ثم امسك برقبته..... واقرأ عليه وفعلًا طرحته على قفاه على الأرض وأخذت اقرأ عليه..... ومسكت بحلقه وبدأت ارفع صوتي بالقراءة عليه بآية الكرسي..... فحاول أن يفلت مني فألقمته لطمة بكفي على صفحه الأيمن.... وعند ذلك انتفض ثم جلس..... وضربني على وجهي عدة ضربات.... أعماني ولم أعد أعرف إلى أين اذهب... لكنه أعمى بصيرتي فقمت عنه..... وهو ولّى هاربًا إلى خارج

الغرفة..... ثم عاد وضربني.... وبقيت لا أنشد إلا السلامة..... وأتى والده يتأسف والمدرسين الأردنيين الذين في الغرفة المجاورة أتوا على سماع الصوت ووجدوني في حالة يرثى لها والحقيقة أنني ارتحت لمجيئهم خوفًا أن يعود عليّ ذلك المريض ويضربني مرّة ثالثة....

ومرّة أخرى كان أحد زملائنا المدرسين المتعاقدين والذي قضى في المدرسة أكثر من خمس سنوات ويعيش في الوادي وعرفه أكثر سكان الوادي وهو كان تعامله معهم ممتاز جدًا... لذلك حبوه وحسبوه واحدًا منهم.... إلا أنه لم يرزقه الله بذرية من زوجته..... لكن عوضه الله بحب الناس له.... فهو يحضر معهم مناسباتهم.... ويخدم على الضيوف كأنه من أهل الوادي.... وزوجته كذلك كأنها من نساء الوادي..... ويذهب مع زوجته إلى المزارع ويساعدهم في جني الثمار وزراعة المحاصيل.... وهم يعطونه من نتاج تلك المزارع وحتى أنه لم يعد يرتدي اللباس المعتاد (بنطلون وقميص) بل يلبس الثياب العادية الخليجية وغترة وعقال.... وكلا يحبه ويحترمه.. وفي ذات يوم كنت أسير في الوادي وأنا على دراجة نارية بعد صلاة العصر فإذا هو يعترضني بالقرب من أحد المزارع ويعزمني للدخول معه إلى المزرعة القريبة منه.... فدخلت..... كانت هناك امرأة تقطف باذنجان وتضعها في أقفاص تمهيدا لصاحب سيارة يأخذها إلى الطائف ليبيعها هناك ولما

وصلنا أتت إلينا وأشارت بيدها بالسلام ثم وقفت..... كانت طويلة في الأربعينات من عمرها وتراها لا تحسب أنها من بلاد الشام.... بل تجزم أنها من أهل الوادي..... ومن أصحاب التعب والنصب في المزارع... وأتت لنا بعد قليل بثلاجة قهوة وجلست بجانب زوجها....

تحدثت مع زوجها في أمور شتى.... وسألته عن موضوع الإنجاب وأنني لم أرى معهم أطفال.... وأنا أسمع إنهما متزوجان منذ فترة فأجابني أن الله لم يكتب لهما ذلك.... وقال أنه يريد مني أن اقرأ على زوجته لعلها تحمل..... وأن يرزقهما الله بالعيال.. لكنني عندما رأيتها طويلة ومتينة... ويظهر في وجهـها كلف كثير.... بدأ لي من ملامح وجهها الصرامة والهيبة..... فخفت أن أقرأ عليها وتضربني مثلما ضربني ذلك المجنون.... فقلت له أن مثل هذا الحالات من اختصاص الشيخ عبد الرحمن إمام المسجد..... أما أنا فلم أصل إلى هذه الدرجة من العلم بعد..... وبذلك تخلصت من القراءة عليها..... وعندما وصلت إلى الشيخ عبد الرحمن قلت له ذلك..... وقال لي أن أكلمه أن يحضر إليه وأبدى استعداده أن يقرأ عليهما معًا وبدون مقابل..... فأخبرته وأتى إلى الشيخ عبد الرحمن وقرأ عليها معًا...

دارت الأيام على مرزوق وهو في السجن وأتته المصائب من كل مكان..... فقد تقدم أفراد عائلة محسن بطلب التعويض عن كتم شهادته.... حتى قتل في السجن من جراء كتم الشهادة أو من جراء القهر الذي لحق به والتعذيب وبعد اعتراف مرزوق بالحقيقة..... بدأ أصحابه وأقاربه في المفاوضات مع عائلة محسن بطلب الصلح والتنازل عنه..... وقد تم فعلًا التنازل عنه مقابل مبلغ من المال وخرج من السجن بعد أن أمضى فيه أكثر من ستة أشهر..... أما معاملة إبراهيم فقد تحولت إلى المحكمة وحضر مرزوق وسجل شهادته أمام القاضي واعتبر القاضي أن ورقة حسنين مع شهادة مرزوق كافية للحكم بالقصاص من سهيل الحافي لقتله إبراهيم... وصدق الحكم من الجهات العليا..... لكن المتهم غائبًا وليس له مكانًا معروفًا وأبلغ أهله بذلك وتم التحفظ على ممتلكاته.

وتم استدعاء الممرض راشد وكذلك دكتور المستوصف حيث أن ورثة محسن أفادوا في مطالبتهم بمجازاة اثنين من أفراد الشرطة والمدير الذين قاموا بتعذيب محسن وأن الشرطة استدعت الدكتور والممرض لضماد الجراح التي تعرض لها من جراء التعذيب أكثر من مرّة.....

ضاقت عينا يوسف وهو يرى ومضات من القلق تتعاقب على وجه زاهية بعد الزواج بفترة... وأخذ يخرج بها بسيارته إلى أطراف الوادي كي يسرّي عنها بعض ما تجد..... أنها المرأة التي حملت اسمه الآن....

ذات ليلة أخذت نظراتها تجول في أنحاء الغرفة ملاحظة اللون الأبيض والأزرق في مختلف تركيبات الغرفة. بعد أن تم طلاؤها من جديد بعد خروج خالد منها وتم إضافة مطبخ صغير بجانبها وغرفة أخرى....

استحال عليها أن تمنع بصرها من تفحص غرفة نومها المؤقتة كما يسميها يوسف وكان من الصعب أيضًا تجاهل ذلك التوتر المؤلم في داخلها.....

عنفت نفسها قائلة بأن عليها أن تتماسك ف يوسف هو رجل كغيره من الرجال. ذا قيمة في المجتمع وهيبة أيضًا ولكن لم تكن أن تتصور نفسها مع رجل شرطة في يوم من الأيام.....

ومع ذلك ترى أن كل ما عليها أن تقوم به هو احتلال سريره والقيام بواجبها نحوه.. فربما أن القدر يسير في صالحها وربما حملت منه وخرجت من كابوس العقم الذي يقض مضجعها.... جذبت نفسًا

عميقًا وحولت انتباهها عن السرير.... عليها أن تغير ملابسها وتذهب إلى المطبخ..

وتمر الأيام....

وذات يوم جاء الصوت من عند الباب.... بطيئًا..... فاستدارت نحوه ببطء...

كانت سترته معلقة على كتفه... ودخلت هي إلى غرفة النوم.

عليها أن تشعره برغبتها فيه أكثر من رغبته فيها.. ولو كانت امرأة أخرى هنا مكانها لكانت الآن تحاول إغراءه بكافة وسائلها الأنثوية.

لكن يكاد توتر الأعصاب يدمرها..... كان هذا واضحًا في تسارع النبض في أسفل عنقها وفي الحذر الذي تتصرف به أمامه

أما صوتها فقد بدأ هادئًا متزنًا.. وذلك أبعد أشياء كثيرة عنها....

بالقرب من المسجد الذي قريب من سكني الجديد هناك محل الجزار ونادرًا ما نجد عنده لحـــمًا.... فهو لا يذبح إلا بطلب الزبـــون وليس كباقي الجزارين الذين يعلقون بضاعتهم على الخطاف ثم يشتري منه الزبون ما يريده..... لكنه يسجل طلبات الزبائن فإذا رأى أن العدد يمكن أن يصل إلى ذبيحة..... فعند ذلك يذبح ويعطي كل ذي حق حقه..... والجميل فيه أن يذهب ثم يوزعها بنفسه على كل من طلب منه لحمًا إلى بيته..... وغالبًا ما يأخذ قيمتها مقدمًا من الزبون.

بالقرب من المسجد أيضًا حداد الوادي العم صالح وهو لا غنى لأهل الوادي عنه..... فهو يعمل لهم أدوات الزراعة وكذلك الحصاد وكل ما يتعلق بذلك من محاريث وسكاكين وفؤوس وغيرها... وقلما يهدأ من عنده أصوات الضرب على الحديد.... لذلك فإن زبائنه كثيرين ولا تكاد ترى ساحة بيته خالية من سيارات الزبائن.

كنت أذهب إليه في أوقات العصر لأتسلى معه فهو لطيف ويهش ويبش لزائريه.... وأحيانًا نجتمع عنده أنا وبعض الجيران ويعمل لنا شاي على الجمر الذي عنده... وكان الوحيد الذي يقطع من أشجار الوادي ما يحلوا له..... من أجل الحصول على ما يحتاجه من وقود للنار التي يعمل بها.....

ارتحت بيني وبين نفسي، حين قررت الاستقرار في سكني الجديد الذي لا يبعد عن المدرسة كثيرًا.....

انتقل الأستاذ علي من المدرسة وتم تكليفي بعمل مدير المدرسة.....

كان البيت الجديد في أعلى سفح الجبل وكانت النَّافذة تطلّ مباشرة على المدرسة وهذا البيت واحد من عشرات البيوت المبنيَّة بالسَّفح.....

وحين هبط الليل، جلست إلى نافذة في غرفتي والبيوت تحتي ومن حولي وأخذت أراجع الأحداث على ضوء مصباح ضعيف ضوءه... فأسفت لما ضاع من عمري.... ولمت نفسي التي بدورها خذلتني في لحظة تردد وخدعتني في حالة ضعف... وأضعت كثير من الفرص التي أتيحت لي ولم اغتنمها.. فضاعت مني....

ودرجت أيام حياتي على غير هدى. ثم جعلت الأحداث تمر بذاكرتي حدث بعد حدث، وكانت تلك الأيام تنزلق من عمري بغير رقيب ولا حسيب.

فضاقت عليّ نفسي. فرأيت أن من المفيد أن أترك هذا المكان. وأن اذهب إلى زملائي المدرسين كي أتسلى معهم في مقر سكنهم الذي ليس بعيدًا عني...

انتقل عمل يوسف إلى مدينة الطائف وبعد سنة من زواج زاهية ويوسف تغيرت أمور كثيرة وأصبحت المشاكل هي زادهم الوحيد في مقر سكنهم....

وتمر الأيام...

وذات يوم ومع طلوع الفجر نهض يوسف من فراشه نشيطًا ناسيًا تعبَ الأمس.... غسل وجهه بالماء البارد ثم صلى الفجر وذهب إلى الدوام لكنه ما لبث أن عاد بعد فترة قصيرة.. وعندما سمعت صوت سيارته أمام البيت نظرت من النافذة فإذ هو واقف مع امرأة خارج البيت ووقف معها طويلًا ثم دخل إلى بيته..

قالت تلوي شفتيها غير مصدقة تتهمه:

- من هذه المرأة التي تقف هناك.

أخرجته عن طوره.. صاح باستياء:

- اتق الله يا امرأة.. إنها مجرد عجوز مسنة..

- لماذا وقفت معها...؟

- سألتني عن الفرن..

- لقد طال مكوثك معها...؟

– كان الموقف يتطلب أن أوصف لها المكان....

– ألم تجد من تسأله غيرك...؟

- ما أدري عنها...

- من شكلها ليست عجوز كما تقول..

- ممكن... الله المستعان... (كان يرد عليها بغضب)..

أصبحت زاهية ترصد له الأخطاء في كل مناسبة.. حتى وإن كانت غير حقيقية، فقط يسيطر عليها وهمٌ قاتل.... بأنه يخدعها.. وكثيرًا ما كانت تتخيل بأنه سيتركها يومًا ما..... من أجل امرأة أخرى، لهذا قالت تثيره:

– لقد كنت تختلس النظر إليها وإلاّ ما أدراك أنها سيدة عجوز.. بعدما تركتها....

– ضرب بيديه على رأسه.. وهو يكاد يفقد صوابه هاتفًا:

– من الطبيعي أن أنظر نحوها، فقد كانت تكلمني..؟

صمتت بامتعاض غير مقتنعة بتبريره، وفي المساء.. أوشكت الهواجس أن تستبد بها.. والغيرة تنهش قلبها، فقد تأخر يوسف وعلى غير عادته في العودة إلى المنزل، فراحت تذرع المكان بتوتر.. وهي تضع الخطط الأولى للسيناريو العنيف الذي ستواجهه به، وعندما فتحت له الباب.. كان يبدو عليه الرضى.. بادرها بانتعاش:

– مساء الخير يا زوجتي العزيزة...

قالت تفجر في مسامعه قولًا جافًا.. ينم عن الكره والقهر:

– ولماذا عدت الآن، كان عليك أن تكمل سهرتك حتى الصباح...؟

.. سكت واتجه إلى غرفة النوم ليخلع ملابسه.. ومع ذلك رفع رأسه مبتسمًا وأجابها....

– كنت أنوي ذلك لكن الاجتماع انفض.. وانتهت الزيارة..

اقتربت منه، لكنها توقفت لبرهة.. فقد كان ثمة رائحة غريبة تنبعث منه.. صاحت:

– فيك رائحة عطر نسائي!.. عطر نسائي في ملابسك؟

أخذ يتشمم نفسه باستغراب يتأكد من حقيقة قولها.. تذكر فجأة أمرًا، فقال ضاحكًا:

– آه.. هذا عطر أمل أختي... لابد وأنه علق بي وهي تعانقني..

انهمرت الوساوس على مخيلتها تحرقها، علقت بسخرية:

– ما شاء الله.. وهل يجب أن تعانقك أمل؟!!

قال بغضب:

– هل جننت.؟.. إنها أختي، وماذا لو عانقتني أختي بعد أسابيع طويلة لم أرها خلالها..

كعادتها دومًا لم تلقِ بالًا إلى قناعاته.. بل وفوق ذلك قذفته بسؤال وشكوك أذابت صبره.. حين قالت:

– ولم لا تكتفِ بمصافحة أختك فقط، ثم ما يدريني أن هذا العطر خاص بها.. ربما كان عطر امرأة أخرى..!

كانت تلك الشعرة التي قصمت ظهر البعير، لقد تحمل غلظتها.. وسلاطة لسانها.....، ورغم ذلك كان يفسر شكوكها الحمقاء باستمرار على أنها غيرة غير عادية يدفعها إليها حبها له، ولكن أن تغار من أخته أيضًا.. أن تشك بأخلاقه وسلوكياته.. فهذا شيء كثير...

لم يكن ذلك المساء لكليهما مساء يمكن تجاوزه ببساطة.. كان قاسيًا جدًا ومربكًا ومصيريًا.. بقدر ما فيه من مشاعر العتب والخيبة.....

كان كل منهما يجلس في مكان مختلف جدًا كلًا يفكر في ما سيفعله الآخر وكان كل منهما أيضًا يدرك ما تعنيه تلك المشاعر التي تنتابه... وحقيقة ما يتخللها من قنوط.. لا يمكن أن يتحمله أيّ منهما وقد اقترب كلًا منهما من نقطة اللا عودة... والحل هو الطلاق...

قال بحزن وهو يتجه نحو الباب تاركًا لها قسوتها وشكوكها:

– تذكري.. أنكِ أنت التي تدفعيني إلى اتخاذ القرار الذي لا تحمد عقباه..

لم تفهم قوله.. سألته بحيرة:

- قرار.. أي قرار هذا؟

قال يدير لها ظهره:

- الطلاق.. والزواج بأخرى، فإما أن تراجعي حساباتك جيدًا، لتحدّي من شكوكك ومعاملتك القاسية لي.... وذلك لنعيش بسلام.. وإما أن يذهب كل منا إلى شأنه. والحل في ذلك هو الطلاق...

لقد أمضت زاهية سنه كاملة مع النقيب يوسف ولم تنجب وتحت ضغوط من أهله وغيرتها الزائدة طلقها وعادت إلى بيت والدها في وادي السدرة..... والحقيقة أنني كنت مسرورًا بطلاقها منه فأنا منذ أن قرأت عليها وقلبي متعلق بها وكنت أتمنى أن يطلقها يوسف وعند ذلك لن اسمح أن تذهب عني مهما كلفني ذلك...

عادت زاهية إلى وادي السدرة بعد أن انفصلت عن مدير الشرطة من الطائف وبدأت عليها آثار المدينة والراحة..... أما أنا فمن داعي الفضول زرت والدها.....

أتت إلينا زاهية وألقت عليّ التحية. ثم خرجت..... وبقيت اسأل والدتها عن نفسيتها بعدما تطلقت فأبدت عتبها عليّ..... وكأنها تقول أنت السبب الذي دفعها إلى ذلك النصيب الذي لم يكن موفقًا..... وأبديت رغبتي خلسة لوالدتها أنني أريد أن أصلح غلطي وأن أتزوجها..... وطلبت منها أن تبقي الموضوع سرًا وأنني صادق فيما قلت لها..... وكذلك طلبت منها أن تشاورها في الأمر وكذلك تقول ذلك لوالدها وأن ترد لي خبر عند زيارتي لهم في المرة القادمة.

علقت صورتها في مخيلتي (ارتبطت أفكاري بها على مدار اليوم).. ما الذي أقوله إذا لم أكن أفكر فيها...؟

كيف لملامحها أن تظهر أمامي بهذه الدقة..؟ أو كيف لكلماتها القليلة ولهجتها العذبة أن تخرج من أذني! أو الطريقة التي فتحت بها عيناها مبدية غرابة من زيارتي لهم... ربما مجرد فضول ينتابني تجاهها! وسينتهي ذلك قريبا حاولت إقناع نفسي بذلك..

في اليوم التالي. كانت أمها تجلس في بهو المنزل تبحث عن هواء نقي ينعشها بعيدًا عن دخان البخور الذي تضعه زوجة ابنها في غرف المنزل الصغيرة مع غروب شمس كل يوم.. تنادي على زاهية التي أتت تحمل ابتسامة نقية كنقاء ذاك الهواء الذي يهب نسيمه في صمت لتحادثها وتجلس بجانبها... وأنا انتظر الفرج من الله بعد تلك الجلسة عندما رأيتهما وأنا اعبر الوادي على ظهر دراجتي النارية..

منذ أن زرتهم وأنا أتصورها في كل شيء وخيالها لا يفارق عيني..... إنها جميلة جدًا وأقول في نفسي ربما لو ذهبنا إلى دكتور أخصائي لربما يوصف لها علاجًا ثم إن كان لنا نصيب في الأطفال فإن ذلك سيكون بأمر الله وتوفيقه..... لكنني وجدت أنني متعلق بها جدًا.... إنها أجمل بكثير من قبل زواجها من مدير الشرطة.....

تفتحت شهيتي لأن أراها كل يوم بل كل ساعة لو استطيع... وقد ترك يوسف المكان الذي كان يسكنه بجوار بيتها وأصبح المكان جاهزًا لكي انتقل إليه..... وأخذت أتردد عليهم بحجة شرب القهوة أو عبور الوادي مشيًا على الأقدام..... وعيني مبرمجه على بيتهم..... ربما أنني أراها خارج البيت أو عائده من المكان الذي تجلب منه الماء إلى بيتهم..... وكما قال الشاعر:

لعلي أراهم أو أرى من يراهم

ذات يوم وعندما زرتهم في البيت بعد أسبوع تقريبا وجدت والدتها... وجلست معها خارج البيت على فرشة صغيرة كانت تجلس عليها بعد صلاة العصر دائمًا.... وسألتها عن رد زاهية فقالت لي أنها اشترطت أن تذهب بها من هذا الوادي إلى مكان آخر إما أن تتزوجها فتبقى في الوادي فقد رفضت رفضًا تامًا فقلت لها:

- إنني مرتبط بوظيفة هنا ولا استطيع أن اذهب من هنا بدون نقل عملي إلى مكان آخر.

- أنا الآن احضرها إلى هنا وأنت تسمع منها هذا الكلام بنفسك.

- (صادف ذلك هوى في نفسي فأنا أريد أن أراها وأتكلم معها فحضرت واستهلت وأنورت وجلست بجانب أمها وقالت نفس الكلام).

- (جعلت المفاجأة عينيها تتسعان قبل أن تسدل أهدابها بسرعة مرغمة نفسها على الابتسام)... إذا تريد تتزوجني فأما أن نذهب من هذا الوادي إلى أي منطقة أخرى أو إنني غير موافقة....

وانشغلت عيني تنظر إليها ولا أدري أين أنا.. كل شيء فيها يعجبني..... تذكرت قول الشاعر:

سولف فديت الحروف وتمتمات الكلام

يمكن يلين الحـــزن وأعصابي التالفة

جيتك معي سالفة شوق وحكاية غرام

لكن نسيت الكلام وضاعت السالفة

لم تكن زاهية تعدم الوسيلة التي تجعله يراها بها في أبهى حلة عند كل زيارة...

بعدما رأيتها من قرب وسمعت قولها قررت في نفسي أن أحقق رغبتها حتى لو طلبت أكثر من ذلك.... لكنني طلبت منها أن نتزوج وبعد ذلك أطلب نقل من المدرسة..... وهذه الأمور أنا أوعدكم أن كل شيء سيسير في الإطار المرسوم..... وأنني أفكر فعلًا في الانتقال إلى جده.... فطلبت مني وقتًا آخر لكي تفكر في الموضوع فوافقت على ذلك.... وانصرفت وأنا أرى أن طلبي منها سيكون بالموافقة بإذن الله.

ذات يوم وعندما زرتهم في البيت بعد أسبوع تقريبًا وجدتها مع والدتها وكنت أجلس معها بحضور والدتها قبل زواجها من يوسف ونتناقش في أمور كثيرة.. لكنها في هذه المرة كانت تشرح لي عن الشقاء الذي لحق بها بعد زواجها من يوسف مدير الشرطة قالت...

إنني استجير بالله أن كنت تريدني محطة في حياتك فأنا قد أنهكني الوجع والظلم الذي لحق بي من صاحبك يوسف.. وأخذت تبكي وتقول:

هل كان يتسلى على أرملة أتعبها الزمن وحسبت أنه صادق في مشاعره وأنني سوف أكون معه في أمان من نائبات الدهر وفواجعه...

يوم قررت أن أتزوجه كنت أحسب أنه الزواج الأخير في حياتي..... هل كان حبي له وإخلاصي هو العقاب أو الجزاء الذي كنت انتظره...

لم أحتمل لوم نفسي وعقابه لي.... بكيت كثيرًا

كانت دموعي تنسكب بصمت. عاودني الشعور بأني امرأة غير مرغوب فيها لماذا قبلت به.... هل أنني لم أحسن الاختيار.... هل أكنت بليدة إلى هذا الحد.....؟

اكتشفت أنني كنت محطة في حياته نزل فيها ليستريح قليلًا ثم رحل... كنت معه كسجارة سحب دخانها ثم نفثت بقايا أنفاسه ودخانه معها في وجهي.....

ظل حلمي يواجه يقظته ويستسلم له... عشقته رغم جهلي به (ضحكت قليلا)..... وكنت أود لو أبكي كثيرًا في كل يوم لعل ذلك يخفف عني..... الآن فقط أدركت معنى صمته.

تراجعت قليلًا للوراء وتراجع حلمي معه. خفت أن يتراجع كثيرًا. فلزمت الصمت...

كل الناس يمرضون بالنسيان إلا أنا فمرضي بذاكرتي القوية والمريضة...

تزوجته فجأة..... كل شيء في الحياة يأتي فجأة..... وكل فجأة

لا تأتي جميلة..... لذلك كان زواجي منه جميلًا في بدايته لكن نهايته كانت دامية..

بعد زواج استمر بضعة أشهر وجدت أن زواجي كان مؤقتًا وأن كل شيء في حياتي ربما أنه مؤقت أيضًا.... فهل أنا نزوة في حياتك... أصدقني القول يا خالد...؟

فقلت...:

أما أنا فلن أكون مثل يوسف لكن أرجو أن تثقي بي وبحبي لك وبأذن الله لن يفرقنا إلا الموت..

كنت أقلب نظراتي في ملامحها المتألمة..... فوق خط شفاهها المتعرج القلق.... وجفاف فمها الذي يبلله أحيانًا صدي دموعها وأناتها في كل كلمة..... وجعها الذي انتقل ثقيلًا إلى أعماقها وحتى نبرات صوتها..

ثم قلت:

وأنا أتأملها أرجو أن تطوي هذه الصفحة من حياتك التي أرى أنها تستجر متاعب قد أثقلك بها الزمن الذي مضى ولا داعي لاسترجاع متاعبك هذه.....

كنت أراقبها بعيني.... كيف يعصرها الألم... كيف تبكي.. وكل

صفة من صفاتها تزيد بها تألقً بعيني.. ورغم كل فضولي الجارف إلا أنني بقيت على مسافة محايدة.. وأقدم لها النصائح فقط..

وبعد عدة أيام ذهبت إلى بيتهم مرةً أخرى..

كانت على السطح تنشر الغسيل حين وصلت أمام الغرفة التي كنت اسكن بها..

مشت نحو الشرفة التي جهتي ومدت بصرها من الحافة العليا وحدقت بالأرض. وحينما رأتني أدارت لي ظهرها بتثاقل.....

اعترض بصرها محدقا بي مرة أخرى فعرفت أنها قد عرفتني كنت كطائر صغير حن إلى العش الذي عاش فيه فترة ثم تركه..... وقفت بوداعة انظر إليها وهي تنزل من السطح أخذت أفكر هل ستأتي إليّ أم أنها ستتجاهلني..... يظهر أن وقوفي أشغلها عن كل شيء....

ـ من؟

هتفت بصوت ضاع منه عذوبته وغادرته رقته الموسيقية فرددت

ـ أنا..

ـ ومن أنت.

ـ خالد.. مدير المدرسة.

هي عرفتني من الوهلة الأولى التي رأتني فيها... تحركت بحذر نحو الباب وتمسكت بحديدها ومدت نصف جسدها إلى الأمام

وتفرست بالمتكلم وأنا حملقت فيها بشغف..... الله..... لقد ازدانت أكثر من الأول....

خرجت من الباب وبقيت بعيدًا عني فسلمت وردت علي السلام وسألتها عن يعقوب وعن والدها فأخبرتني أنهم في المزرعة....

كان في صوتها جفاف يحبس نصف الحروف فيجعل كلامها مؤثرًا بشكل يثير الشفقة.

كنت اكلمها بنبرة هادئة وكنت حريص على أن لا اقترب منها كثيرًا لا من أجل تنظيم أنفاسي فحسب... بل من أجل أن لا يرانا أحد فيظن بنا سوءًا..... وانطبق علي قول الشاعر..:

حداني على البيت المطرّف غلى راعيه

ولا يمتكـــن جناب بيتـــه وهو غالي

غشاه الحلا والنور يوم الغـــلا مغليه

يعيش النظـــر شوفه بليّـــا تعدّالي

تحطّم عليه الحال ما ينعضي عاضيه

تحطّام عـــودٍ مبطيٍ فيـــه المحالي

وأنا سيل قلبي صوبهم منتحي واديه

ولولا محادير السهل كـــان ما سالي

كنت لابد أن أخبر أهلي بعزمي على الزواج من زاهية

وكانت تسير الأيام بسرعة كعادتها نهاية كل سنة دراسية وكأن الزمن يسابقنا ليتجاوز ما يسابقني به والدي ووالدتي عندما أخبرهم أنني سأتزوج بنت من الوادي وأنها قد تزوجت قبلي مرتين وأنها عاقر لا تنجب وأكبر مني بخمس سنوات.. أفكار كانت تقرع في رأسي أجراس الخوف والقلق وقد لا يدركان أن كلُ منّا أحب الآخر...

... لكن عليهما أن يسمّوا ذلك قدرًا.... وأن يسلّموا به وانتهى الأمر.. وربما أن فكرتي هذه لن ترق لهما.... وأنه قدر أن يتعلق بعضنا ببعض بهذه الطريقة.... وأغلب الظن أنهما سيحسبان أنها غلطة قد ارتكبتها مع زاهية وأننا على طريق تصحيحها..

لا أصدق.. قالت ذلك أمي...؟

- صدقي إذًا الآن يا أمي.....

- لماذا..... هذه المغامرة.... أفهمني؟

- لأني أحبها وكفى...

حب... أي حب هذا الذي يجعلك تترك بنات أعمامك وأخوالك وتتزوج من أرملة ثم مطلقة وأكبر منك سنًا.. أي حب هذا الذي يجعلك

تخرج عن عادات وتقاليد أهلك...؟ وأن تغضب والديك عليك من أجل أن تتزوج امرأة عاقر.... تعرف معنى عاقر... يعني بزوره ما فيه... يعني... بح..... لا حول ولا قوة إلا بالله.....

– صدقيني هو الحب وحده من يفعل ذلك كيف لي أن أشرح لك المشاعر التي تتجول داخلي ولا يمكنني تجاهلها..... كيف اشرح لك ذلك يا أبي..؟

لا داعي لأن تشرح لي أي شيء.... بل اشرح لأمك.. (قال ذلك أبي بغضب)..

حينها فهمت أن الموضوع يجب أن أناقشه مع أمي فقط واكتشفت أن أبي سيوافق على ما ترضى به أمي واضطررت لمقابلة أمي لوحدها ومفاتحتها في الأمر أخيرًا..... وعلي أن أخرج من صمتي وأواجه الأمواج.. بدأت افرغ قبلاتي وأرسم بها وشمًا جميلًا على كف أمي.. قبل أن أفاتحها في الموضوع إلا أن إصرارها وتجهّم ملامح وجهها كان حائلًا دون ذلك. فكأن سعادتها لا تكون إلا حيث تبدأ تعاستي،

الساعة السابعة مساء قررت أن اجلس معها وأقنعها.. وجدتها جالسة في غرفتها ابتسمت عندما رأتني قادمًا نحوها..... كم افتقدت تلك الابتسامة لأيام وأيام.. وضعت يدها على ظهري. حاولت قدر المستطاع أن أبتسم وأبدو طبيعيًا وأتحدث وسط الحسرة التي تحيط بي.....

لكنها انصرفت عني وخرجت من الغرفة إعلانًا منها على عدم الرضا وتركتني في دوامة غامضة من التفكير، في مستقبلي الذي تتوقف نتائجه على رضاها. وقبل أن تخرج من الغرفة. لحقت بها قائلًا. سأخبرك بشيء عنها يا أمي فأنت ستحبيها إذا رأيتها.. وأرجو أن تعجبك..

نظرت إليّ طويلًا وهزت رأسها بابتسامة... خلاص قررت...؟

– نعم قررت... وأتمنى أن يعجبك قراري.. وعادت إلى الغرفة...

– طبعًا سيعجبني منذ فترة وأنا أتمنى أن أراك عريسًا لكن من غير هذه الفتاة؟

– يا أمي النفس وما تشتهي..

– ما أدري لماذا لا يعجبني قرارك.. أقصد تلك العروس التي اخترتها...

–.. (شعرت أنني استطيع إقناعها) يا أمي.. لقد رأيتها وأعجبتني... أمي... أنا جاد في هذا الزواج.. لا تخنقي فرحتي.. الللله يرضى عليك..

– هي... جميلة..

– جدًا جدًا... اسمها زاهية

– مصمصت شفتيها ولوتهما بطريق عجيبة.. اسمها زاهية.... الله الله يا خالد..

رأيت أن اسمها لم يعجبها... وكأني قذفت بحروف اسمها ليتلقاها وجه أمي بتعب ومعاناة.... وقد بدأ يفقد لونه الطبيعي وكأن به عتب ومعاناة..... ثم سكتت قليلًا.... كنت أريدها أن تنطق.... أن تقول أي شيء عدا سكوتها المقلق... ونظراتها الحادة.... ومع كل ذلك التوتر الذي كان يحيط بي أحسست بقوة لا أدري من أين أتت؟ لكني أحسست بها.. فأخذت يدها في يدي وأخذت اقبلها...

انفجرت أمي ضاحكة عكس كل توقعاتي وتلاشت القوة التي أحسست بها.... فخبطت بيدها على ظهري قائلة....

إذا سعادتك ستكون معها فلن اعترض طريق سعادتك... لكنك اقنع والدك أنه عاتب عليك..

في اليوم التالي..

دخلت البيت فواجهتني ملامح أبي التي لم أتبينها من شهر.. ملامح عتب لكنه اخف من اليوم الذي قبله فسلمت عليه وقبلت رأسه وكفه وجلست بجانبه....

- كيف حالك ابني؟

- بخير.. والحمد لله ثم قلت:

في عمر الإنسان بعض الأوقات جديرة أن تبقى.. وتحفظ. فهي

ليست إلا أقدارًا... تتخذ من العقل الباطن مقرًا لها ثم تنفض متاعب الحياة المتراكمة منذ زمن... فتدفعنا في آفاق الحياة. مَثلنا كمثل الزهور تنمو بتساقط الندى عليها فتزداد قوة كلما كبرت...

فالعمر محطات مختلفة لا تأبه لموقف فرض على الإنسان ولا توقفها المعاناة من إحساس بالألم...

وليس لدينا الحل الأمثل لما يصيبنا من ضيق ومعاناة عندما نجد سعادة نعيشها في حياتنا كما نريد أن تكون.....

وعندما يجهد الإنسان نفسه بعواطف عقيمة وتخرج نتائج همومنا بالحزن والبكاء... فتضيع أعمارنا دون فائدة...

فلماذا كل هذا العتب منك أنت وأمي؟

هل ترى أن الكون سيقف عندما أتزوج البنت التي أحبها... لا تستبق الموضوع بحزن وألم.... فقد تكون الأمور تأتي بعكس ذلك إن حزن الآخرون أم فرحوا فأنا وحدي أتحمل مسؤولية اختياري هذا...

أم تظن أن الحب لا يوجد في البقاع التي نعيش فيها نحن وأننا طبقة مستثناه من صنف البشرية كلها... أم أن الحياة لا تسير إلا كما تفهمها أنت وأقرانك وتعتقد أن السعادة لا تنمو إلا على هوامش الحزن ولا يتغذى الشخص إلا من شدة المعاناة..... (كنت أتكلم مع والدي

بهذه الفلسفات.... وكان ينظر إليّ مستغربًا مني هذه الثقافة التي أسبح فوق أمواجها دون كلل أو ملل.....)

كنت أريد أن أجمع باقة ورد أزين بها المكان الذي نعيش فيه... ولكن أراكم يا أبي على وشك التخلي عني..... لأن ذلك المكان الذي أريد أن أضعها فيه لا يزوره أحد إلا في الخيال.... ولا يتصور جماله أحد إلا في الأحلام...

ثم أخذت يده في يدي وقلت له...:

لماذا نصر على جر الحياة إلى الخلف، والأمل يسطع نوره أمامنا..... فأطلق زفرة قوية آتية من أعماقه وقال لي بفلسفة اقوي من كلامي له:

قرأت من ما كتبه الأديب المصري مصطفى صـادق الرافعي يرحمه الله قوله:

ليس كل ما يعجبك يرضيك، ولكن كل ما يرضيك يعجبك، فالجمال الوصفي الذي يقاس بالنظر ويخرج منه الفكر بنسبة هندسية، جمال صحيح وحريٌّ أن يكون معجِبًا...

ولكنه على كل حال بناء جسمي كالقصر المشيد الذي يعجب الفقير المعدِم فيتمناه... أما الجمال الذي يُرضِي فهو الذي يشفُّ عن صورة روحك بغير ما يخيلها لك ماء الحياة العكر.....

فمن أحبَّ ورأى حبيبته من فرط إجلاله إياها كأنها خيال مَلَك يتمثل له في حلم. من أحلام الجنة..... ورأى في عينيها الصفاء، وعلى شفتيها احمرار الشفق الذي يخيل للعاشق دائمًا أن روحه تكاد تحلق به بعيدًا..... ورآها في جملة الجمال تمثال الفن الخالد الذي يُدرَس بالفكر والتأمل لا بالحس والتلمُّس فأطاعها كأنها إرادته... واستند إليها كأنها قوته وعاش بها كأنها روحه..

يا ابني المطلقة تليق برجل كبير ماتت زوجته ويبحث عن امرأة مغلوبة على أمرها تقوم بخدمته وتعينه في تربية عياله، أو تليق بمطلق مثلها أما أنت فشاب جميل تليق بك البكر، وردة يانعة تتفتح وريقاتها على يديك فتكون أول فرحتها وتكون لك أول فرحتك...

أخذت أجادله ويجادلني فيقول لي وأرد عليه واستمر الأمر بيننا سجال حتى لمس شغفي بها فنظر لي نظرةً طويلة متفحصة ثم قال:

تذكر أني نصحتك وأنك وحدك من سيتحمل عواقب هذا القرار...

كنت أشعر وأنا أمامه كمن يصعد متسلقًا جبلًا شاهقًا وأحسست أن وجهي يسخن ووجنتاي كأنهما صاج حديد تلتهب من حرارة الجهد الذي أحس به....

توقعت أن يصفعني أبي من كثرة مجادلتي له... لكنه فاجئني بتصرف آخر، فقد انفرجت أساريره وبسطت ملامحه، واتسعت حدقتاه

بما يسمح لبريقها أن ينطلق..

قلت له..:

عندما يقف الإنسان فوق قمة التحدي، فمن الصعب عليه أن يرفع يديه مستسلمًا لحالة من الضعف أو الانهزام.

إنني أكره الصبر والانتظار مع إيماني بأن الخيال ولد كي لا يتحقق أحيانًا إذ لا يعدو كونه لحظة تأمل عابرة تدغدغ مشاعرنا بالفرح ثم ترحل...

كنت أحمل في رأسي أفكارًا ومفاهيم تحتاج لجهدٍ كبير كي تتحقق. يصعب معها أن تهن العزيمة أو أن تسمح بأن يتلاشى أملي الكبير، في تحقيقها وهي التي عشت فترة من الزمن أُمني النفس بها...

وشعرت أن والدي موافق على زواجي من زاهية لكن موافقته سوف تحتاج جلسة أخرى...

وكنت أشعر بعد موافقة أمي بأنني تخطيت عقبة جعلت من ظلام مشكلتي بأنني وجدت إشعاعًا ضعيفًا من نور يبدد بعضًا من بقايا الظلام إذ إن والدتي صاحبة موقف لا يتبدل، ورأيٍ لا يقبل الجدل.....

وهل أمضي بقية حياتي رهينة العادات والتقاليد..

فغضب أمي يسبب لي القلق والاضطراب ويشعرني بعدم الرضا.

ولا شك أن غايتها سعادتي، وهذا شغلها الشاغل، فلا يجول في خاطرها سوى ما تحب لي من سعادة وهناء.

كانت أمي جالسة جلستها اليومية في بهو المنزل ناثرة أقمشة حولها وبيدها صحن كبير تتحرك داخله حبات ألذرة تخرج منها بعض الحجارة الصغيرة..

فقلت لها بعد أن جلست بجانبها.. يا أمي..

أعرف أن إنك إن وافقت فهذا من حبك لي وأنا أقدر ذلك لكنني متأكد إنها المرأة التي ستسعدني وأني استميح منك العذر يا أمي، فلا أريد أن أبدأ حياتي على عادات وتقاليد لا أؤمن بها... وكذلك رضاك هو أسمى أمنية أتمناها في حياتي...

.. (شعرت أنني استطيع إقناعها)؟ التفتت إلي مبتسمة ابتسامة مسروق نصفها وقالت...

- هل وافق أبوك...؟
- إذا وافقت أنت سيوافق أبي..
- هل كلمته...؟
- نعم... إنه ينتظر منك الضوء الأخضر...
- ..... ابتسامة أخرى ضعيفة..

إذا وافق أبوك أنا موافقة..

- وتذهبون معي للخطوبة..
- نعم نذهب معك للخطوبة والزواج...
- قمت أقبل وجهها وكفيها..... وانطلقت إلى أبي وأخبرته بموافقة أمي..
- وأنا مالي رأي...؟
- بل أنت كل شيء...
- وأنت خلاص ناوي الزواج منها...
- هذه رغبتي يا أبي وأرجوك افرح بفرحي أنت أيضًا...
- وفقك الله..
- إذا أنا اذهب إليهم وأحدد معهم وقت الزواج...
- وهو كذلك.. ألف مبروك (كان أول إنسان يبارك زواجي من زاهية)...

لكنه لم يوافق على الزواج حتى قطعت له عهدًا أنه وبعد سنة من الآن وفي حالة إن زاهية لا تنجب أن يخطب لي هو من البنت التي يراها مناسبة لي وحتى بدون موافقتي فوافقت له على ذلك.....

في تلك الزيارة خصص لي والدي قطعة أرض بجانب البيت الذي

نسكن به في القرية وطلب مني أن أرسل له المال وهو سيقوم بالبناء لي في هذه الأرض... فشكرته وأعطيته مبلغًا لكي يبدأ في أعمال البناء... كان والدي لديه مؤسسة أعمال مقاولات معمارية...

علاقتي مع والدي ووالدتي كانت جيدة جدًا حتى وإن اختلفت الآراء إلا أنها قوية..... وكنت اعتبرهما غير قادرين على استيعاب وفهم رغباتي ومتطلباتي كمراهق ومتمرد يرغب بالحصول على كل شيء كما يريد بالضبط... هذه المفارقة الرهيبة بين أفكاري كشاب ووالدي ووالدتي من جهة.... ووجود زاهية في حياتي من جهة أخرى جعلت والدي يعجب بي على تحمل مسؤولية ما أكافح من أجل الحصول عليه وإن كان والدي لم يخبرني بذلك.. إلا أنه قالها لي فيما بعد..

تزورني زاهية وأنا في قريتنا في أحلامي كأشباح لا أفهمها... حضرت زاهية إلى ذهني قوية ومتألقة. قريبًا جدًا سأتزوجها وسأذهب بها إلى الدكتور إن كانت عقيمًا... كي تتعالج وتنجب أطفالًا ونربيهم أحسن تربية.... وسوف أطلب لها العلاج من أي مكان.....

فيه حب ما تدري من هو له

وفيه حب تعطيه من يبغاه

وفيه حب تنساه بسهولة

وفيه حب والله ما تنساه

عدت مسرعًا إلى وادي السدرة كي أخبر زاهية وأهلها بموافقة أهلي وأنهم سيحضرون الزواج وبدأت في الترتيبات لذلك عدت إلى الغرف التي اسكنها من قبل بجوار بيت عمي حمود الصافي..

باقتراب موعد العرس ارتفعت حرارة الاستعدادات كانت جحافل النساء تغزو بيت العروس دخولًا وخروجًا في كل الأوقات... وترقّب الجيران الذين. كانوا يتوقون لحضور عرس مدير المدرسة..

تم عقد قراني على يد الشيخ عبد الرحمن قبل الزواج بعدة أيام وكنت اذهب إلى المدرسة واستقطع الوقت كي أعود إلى السكن ثم اذهب مباشرة إلى بيت العم حمود الصافي والجلوس مع زاهية والتحدث معها وكنت لا أكاد أخرج من بيتهم بحجة ترتيب حفلة الزواج..... وعندما اكتملت التجهيزات أتيت بوالدي ووالدتي وإخواني وأقاربي....

صبيحة يوم العرس امتلأت غرفتي بأقاربي وفتحت الأبواب على مصراعيها ووقف أبو خالد في صدر المكان محاطًا بأهله وجيرانه وهو يشرف على الذبائح التي نحرت بالجملة... كان بيت الشعر في بيت عمي حمود الصافي الواسع يموج بحركة الأطفال المتراكضين هنا وهناك...

شباب من طلاب المدرسة ينظمون المكان المعد لاستقبال المدعوين.....

آخرين يرفعون عقود الإضاءة لتثبيتها.. وفود من النساء تدخل وتخرج... إلى بيت العروس وبين الحين والآخر تتعالى زغرودة طويلة وتجاوبها أخرى بإيقاع يهز القلوب...

واقترب الليل... ليلة العرس..... كانت طلائع الفرحة كبيرة جدًا وكان حفلًا مرتجـلًا امتد إلى ما بعد منتصف الليل..... وغدى إيقاع (الدفوف) موسيقى رائعة لا تنقطع في فضاء الوادي رددت الحانة البيوت والطرقات.. رقصت فيه الأحجار والأشجار... إنها الفرحة التي غابت عن الوادي منذ مقتل إبراهيم..

وأقيم حفل الزواج وكنت أسعد إنسان في الوادي تلك الليلة والذي ظهر لي بعد ذلك أن زاهية كانت لم تكن تتوقع مثل هذه الحفلة...

في ليلة عرسنا استكملت زاهية زينتها، وارتدت ثوبها الأبيض وملاءة حريرية حمراء زادت جمالها توهجًا وبدت كإحدى ملكات الأزياء..

كنت انظر إليها بشغف غير مصدّق أن هذه الفاتنة هي زوجتي وأن هذا السحر كله لي أنا فهمست في سرّي: يا الله ما أروعها في هذا اللباس.... وكنت انظر إلى وجه أمي وأقرأ ملامح الرضى عليها..

تمت حفلة العشاء وذهب المدعوون إلى منازلهم بما في ذلك عائلتي عادوا إلى القرية أما أنا وزاهية فقد انتقلنا إلى الغرفة مثل العزوبية لكننا سعداء وبقينا فيها ٢١ يوم حتى انتهى العام الدراسي ثم انتقلت بها إلى القرية وجلسنا مع الأهل أسبوعين وسافرنا إلى جده.

ذات يوم مع إطلالة نور الصباح الأولى، وأنا على فراشي تمططت للحظات مددت أطرافي بانتشاء كان يستهويني أن اسمع فرقعة عظامي كل صباح، يشعرني ذلك بالسعادة.....

ألقيت نظرة مبتهجة على وجه زوجتي المستلقية بجانبي أمعنت نظري في صفحة وجهها الجميل،بملامحها المتناسقة وابتسامتها الحلوة، التي لا تكاد تفارق شفتيها حتى وهي مستغرقة في النوم.. كل ذلك يبعث في نفسي شعورًا بالانتشاء، ويلقي في ذهني وقلبي إحساسًا لا يخبو توهجه.... أتردد للحظات في دواخلي يقنعني بأنني استطعت أن اغنم من الحياة أفضل ما فيها..... يشعر الإنسان بالثقة عندما يحصل على ما يريد خصوصًا إذا حصل عليه بعد تعب.... ودارت الأيام وتزوجت زاهية....

بعد فترة من زواجنا سألت زاهية عن قصة طلاقها من النقيب يوسف حيث أنها كانت تكثر من التشكي منه ولا ترضى بأن اذكر سيرته أمامها.... لكنها ذكرت لي شيء مهم جدًا.....

أنه بعد أن غلبها الضحك عندما كنت اقرأ عليها وضحكت معها لا شعوريا وبشكل هستيري كان يظن أن بيننا شيء لم يكن هو يعرف عنه وأنه عندما التقينا تذكرناه وأخذنا نضحك بتلك الطريقة التي أفقدته صوابه ومنها بدأت معاملته لها تتغير....

سافرنا إلى جدة للبحث عن مكان المدرسة التي سأعمل بها ولما لم يتم التعيين في المدرسة التي سوف اعمل بها.... جلسنا فيها أسبوع واحد ولم نستأجر مكان للسكن وعدنا إلى القرية.

مضت الإجازة الصيفية وقبل بدأ الدراسة نزلت أتابع أمر تعييني وتم إرسالي إلى المدرسة المحمدية في حي الهنداويه.

ذهبت إلى حي الهنداويه لا أعرف أحدًا وكنت امشي بها في سيارتي العتيقة لم يكن في الهنداويه أكثر من شارعين أو ثلاثة شوارع مرصوفة بالأسفلت أما باقي الطرقات والأزقة فهي لازالت ترابية واستأجرت بيت شعبي قريب من المنطقة الرابعة (مركز شرطة).

وأتضح لي بعد ذلك أنني بجوار سكن مدير الشرطة العقيد سامي في عمارة أبو نصيب وقمت بتجهيز البيت وشراء ما يلزمنا من فرش وأدوات مطبخ أما المكيف فلا يوجد مكيفات بل كانت مراوح مثبته في السقف فقط...

وتمر الأيام وتعرفت عن كثب على العقيد سامي وارتاحت زاهية مع الجيران الجدد.....

كان مقابل المنطقة الرابعة مركاز عبارة عن دكة مرتفعة عن الأرض

بحوالي متر ويتخذه بعض الجيران مصلى إلا أنه يتحول بعد العشاء إلى جلسة تسامر وأنس وحكايات وشاي وما في حكمه بين الجيران المجاورين للشرطة وكنت أحضر مع مدير الشرطة العقيد سامي معهم وحيث أنني أحضر دائمًا مع مدير الشرطة فقد كان لي معه هيبة حتى أنهم يحسبون أنني اعمل في الشرطة.

وتمر الأيام..... وذات يوم قال لي العقيد سامي إيش رأيك تعمل معانا في الشرطة.....!

- كيف أعمل معاك وأنا كما تعلم مدرس....

- جانا وظائف مؤقتة محققين ومحاسبين تبغاني احجزها لك وتعمل معانا...؟

- إذا كان بعد الدوام أنا ما عندي مانع...

- أنا أشوف الإدارة واديك خبر....

- شاورت زاهية في هذا الموضوع وأبدت موافقتها طالما أن فيها راتب إضافي.

بعد يومين أتاني العقيد سامي عند عودته من الدوام وطرق علينا الباب واخبرني أنه أخذ موافقة الإدارة ووافقوا وقال بعد صلاة العصر تأتي إلينا في القسم ونكمل إجراءات تعيينك.....

بدأت من اليوم التالي الذهاب إلى مركز الشرطة (المنطقة الرابعة) كمحقق مبتدئ وأخذ مدير المركز يشرح لي طريقة عملي الجديد وكان عملا بسيطًا كما أن المشاكل التي تصل إلينا قليلة جدًا وتعرفت على منسوبي الشرطة وكأنني أعرفهم منذ زمن.....

استراحت زوجتي بعدما تعرفت على بعض الجيران وخصوصًا عائلة العقيد سامي وكانت والدته قد استلطفت زاهية وأخذت تزورها باستمرار وأصبحنا نعرف أكثر الجيران وكان ذلك مصدر سعادة لي لأنني اقضي أغلب يومي في العمل فأنا في الصباح اذهب إلى المدرسة وبعد العصر في المنطقة الرابعة....

استطعت أن املك قلبها وأنسيها متاعبها التي تراكمت في صدرها فترة من الوقت على إثر زواجها ثم طلاقها من زوجها يوسف....

تركت الأمور تسيل بسهولة ويسر على الرغم من أن التغير تسرب إلى سلوكها..... وصارت بعض تصرفاتها لا تتناسب مع ما عرفته عنها. لكنني تركتها تتحدث، وتتصرف، وتتمادى كما تشاء... وأنا منشغل عنها بالتفكير بعملي الذي يأخذ مني أغلب وقتي إلى ما بعد صلاة العشاء أحيانًا...

ذات ليلة ونحن ساهرون أمام مركز الشرطة (المنطقة الرابعة) كان هناك شخصًا يراقبني منذ أن جلست وبعد انتهاء السهرة لزم بيدي ثم قام..

- أريدك في أمر مهم.....

- أنا..؟

- نعم أنت....

- خيرًا إن شاء الله...

- أنت تعمل في الشرطة...؟

- يعني..... بعد الدوام...

- أريد منك خدمة.... الله يوفقك...

- أنا لست عسكري... أنا متعاون فقط.....

- أنت تقدر على مساعدتي...

- كيف..؟

- أريد أن ازور رجل موقوف لديكم...

- ما أقدر.. هذا من اختصاص مدير الشرطة...

- أنت تقدر تقول لمدير الشرطة ذلك...

- وماذا تريد منه..؟

- بيني وبينه حساب وأخاف أن يسافر وفلوسي عنده.....

- من أين تعرفه....؟

- منذ زمن...

- ما أدري... أشوف المدير...

- مكافأتك عندي..

- أنا ما طلبت منك مكافأة..؟

- إذا تجمل معي وقابلني معه.....

-.... (لن أخسر شيئًا)... قلت في نفسي..

خلاص أنا أكلم المدير بعد العصر إذا قابلته وأنت بعد العشاء تقابلني هنا وأنا أقول لك...

- الأفضل أن تخلي الموضوع بيني وبينك... وأن لا تخبر المدير فقد لا يوافق وأنت قد أطلعتك على الموضوع...

- برضه فكرة..

- بعد العصر تقابلني وأنا داخل الإدارة وأنا ادخل بك معي ونشوف..

وفي اليوم التالي قابلني وأنا داخل لمبنى المنطقة الرابعة وأخذته معي إلى مكتبي وأجلسته ثم ذهبت إلى مدير الشرطة وأفهمته أن لدي مواطن صاحب البيت الذي يسكنه أحد الموقوفين ويريد مقابلته من أجل أجرة السكن الذي يسكن فيه فوافق المدير ورجعت إليه.

ثم طلبت من الجندي الذي كان واقفًا قريبًا من الباب إحضاره لي.

وأتى به مقيدًا وجلست انظر إليه والى الرجل الذي حضر معي... فقال له السجين...:

- خفت أن اهرب... أليس كذلك....؟..

- كان لابد من مقابلتك....

- لا تخاف فلوسك تركتها لك عند صاحب البقالة.. لو مررت عليه لسلمها لك.....

عند ذلك خرجت أنا وتركتهم وجلسوا أكثر من ساعة وعند خروج ذلك الرجل سمعت الأفريقي يقول له:

- أنا إذا خرجت نتقابل....

وانتهت المقابلة وخرج الرجل من عندي بعدما حاول أن يضع في جيبي بعض النقود لكنني رفضت.. واعدنا السجين إلى التوقيف.

ذات يوم عندما كنت في العمل بعد العصر طلب مني العقيد سامي التحقيق مع أحد الموقوفين وناولني الملف الخاص به.. إنه الرجل الأفريقي السيد محبوب الذي قابلته بالرجل قبل يومين...

فطلبت من الجندي أن يأتي به إلى مكتبي..... فأتى به وجلس..... كانت هيئته تنبي على أنه قلق جدًا وبعدما أخذت معلوماته وكنت اقرأ

حيثيات قضيته.. أخذت في مسائلته عن اسمه وكل ما يتعلق به وكنت خائفًا منه وكان كلامي معه بكل تقدير واحترام فكان متعاون إلى أبعد حد.... وكان يجاوب على أسئلتي بكل أريحية وشفافية.. حتى انتهيت من الأسئلة التي طرحتها عليه.... وبدأ لي أنه غير مجرم لكنني كنت حريص على عرض الأمر على مدير الشرطة..

بعد ذلك قال لي بصوت خافت:

- اقترب مني..

- أنا؟

- نعم أنت.....

- بدأت أخاف منه ولم أتحرك من مكاني فأعاد عليّ نفس الطلب..

- تعال بجانبي...

فقمت وجلست على الكرسي الذي كان بجانبه قال لي: ألا تريد مني أي خدمة...؟

- أشكرك... خدمة إيش...؟

- أنا أعالج.... طبيب شعبي...

- أشكرك.. (خطر على بالي زوجتي التي لم تنجب)...

عندي زوجتي لم تنجب رغم أنني عرضتها على أكثر من دكتور...

إذا عندك علاج لمثل هذه الحالة أكون شاكرًا لك....

- بسيطة..... أنا أعلمك آيات من القرآن الكريم.. وسوف اكتب لك معها على أعشاب تشتريها من العطار وبأذن الله إن الله ييسر أمرها...

- يكتب الله ما فيه الخير.....

- وبشأني أنا...؟

- أنا سأتكلم مع المدير بشأن إطلاق سراحك ثم ناديت على الجندي وطلبت منه أن يعيده إلى التوقيف.....

اتجهت بعد ذلك إلى المدير وجلست لا الوي على شيء وكأنني كنت في معركة وكأن يظهر على وجهي التعب فنظر إلي العقيد سامي وقال:

- الرجل صعب... أليس كذلك...؟

- لقد أذهلني هذا الرجل...

- كيف...؟..... لا ينبغي لك أن تكون عاطفي إن العمل في الأمن يحتاج إلى قلب أقوى من الصخر.....

- أبدًا.. الرجل في نظري غير مذنب ولا داعي لاحتجازه أكثر من المدة التي قضاها.. أرى أن نطلب منه إحضار كفيل ويطلق سراحه.....

من الذي اشتكى عليه...؟

- لم يتقدم أحد بشكوى ضده كل الأمر مجرد اشتباه من بعض عناصرنا فقط....

- يا ابن الحلال لا يجب أن تصدق كل ما تسمع....

- والرأي..

- قلت لك... يحضر كفيل ويطلق سراحه.....

- وهو كذلك...

٢٣

كان رئيس قسم الشرطة جالسًا على مكتبه.. وأنا كنت جالسًا عنده. وعندنا العمدة إذ دخلت إلى قسم الشرطة امرأة في عز صباها... وطلبت مقابلة مدير الشرطة وعندما سمع الصوت طلب من الجندي السماح لها بالدخول.....

دخلت إلى المكتب... كانت جميلة جدًا. ثم قالت:

أنا زوجة حمدان زميلكم.. الذي يعمل معكم هنا في الشرطة.....

- وماذا تريدين..

- لقد طلقني اليوم.... وأهلي في منطقة بعيدة وأريد منك أن تعمده أن يوصلني إلى أهلي... ثم قالت:

انتظرت في البيت فترة لا ترقى ذاكرتي فيها إلى التفكير في مصيري القادم... إلى أين اذهب.... لقد طلب مني أن أخرج من البيت.....

عبثًا حاولت أن استجمع قواي لأعرف ماذا أصنع..... وحتى لا اضعف وأنهار من الداخل.. قررت أن أبقى في البيت رغم طلاقي منه.... حتى يوصلني إلى أهلي أو يطلب منهم الحضور إلى جدة..

كان الحزن والألم يخنق كل فكرة تحاول طرد الخوف عني الذي يصور لي ضياع مستقبلي وهتك أنسجة أحلامي.....

(كنا نستمع إليها ونحن مذهولون بما تقول بلغة رصينة وكلمات مترابطة سيّما وأنني مدرس لغة عربية..

فجأة أحسست أن كلماتها قد تبعثرت وبدأت نبرات صوتها تضعف).. ثم قالت:

لقد توازعتني النوازع ومزقتني الانفعالات المتناقضة بين عواطفي التعبة وبين الشعور بالإهانة من قبل زوجي...

لقد تهت بين فواصل الطرق والمتاهات التي أراها أمامي...

توسدت أحزاني بشيء من الإبهام والصمت حتى خطر على بالي أخيرًا أن احضر إليكم لعلك تطلب منه أن يوصلني إلى أهلي أو يذهب ويأتي بهم.. وأنا أعرف أنه لن يعصى لك أمرًا فلجأت إليك..

ثم سكتت قليلًا وتساقطت الدموع من عينيها وأجهشت بالبكاء ثم خرجت من الغرفة ووقفت بجانب الباب ونحن ننظر في بعضنا وقد تعاطفنا معها جميعًا..

طلب من العسكري الذي كان يقف أمام باب غرفته إحضار زميله حمدان..... ولم يطل المقام...

جاء بعد فترة قصيرة..... كانت جالسة خارج الغرفة عند الباب.

عندما أتى سأله....:

- هذه زوجتك التي بجانب الباب..؟

- نعم لقد طلقتها....

- على كيفك كذا تطلقها وترميها في الشارع....

- هي السبب.... تعاملها مع أمي سيء جدًا..

- هذا شيء ثاني.. لكن أنت من أين أخذتها..؟

- من أهلها من الجنوب..

- عليك أن ترجعها إلى عصمتك أو تدخل السجن..... وبعدما ترجعها إلى ذمتك... إن أحببت أن تطلقها فذلك بعد أن توصلها إلى البيت الذي خرجت منه...

- أنا قد طلقتها بالثلاث.

- حتى لو بالعشرين أين تذهب المسكينة الآن..؟

- (كان العمدة جالسًا عنده)... فقال:(هاتها الليلة أنا أخليها تنام عند أمي)..... (لكن المدير رفض)... وقال لعلنا نصلح الوضع..

كان حمدان لا يزال واقفًا..... فصرخ عليه...

- ترجعها..... أو تدخل السجن.... بسرعة.. جاوبني.

- خلاص أرجعها..

- يا لله.... أشهدنا انك أرجعتها إلى ذمتك الآن..

- أشهدكم إني أعدتها إلى ذمتي الآن....

- جيب العسكر اللي في الغرفة الثانية يشهدون على إرجاعها..

- جبتهم.... شوفهم عند الباب....

- روح يا عسكري جيب إمام المسجد..

- ليش....؟

- يسوي لكم ملكة جديدة... وهذولا يشهدوا...

- كفاية أنت والعمدة...

- هذا ما هو شغلك..

- أنا لا أعرف.... لكن إذا كان ذلك ضروري ما عندي مانع...

- هل تعتقد إن ذلك صحيح... قال ذلك العمدة....

- نعم هذا هو الصحيح.... فقد تتعرض للضياع لو لم نفعل ذلك.. وهذه تعتبر طلقة واحدة...

- يجوز يا مدير..؟.. (قال ذلك زوجها حمدان)..

- أيوه..... ضروري يا قليل الحياء.. جيب اللي معك.. فلوس..

- ما عندي إلا أربعة ريال..

- هاتها..... وأخذها وأعطاها المرأة.... وقال اجلسي عند الباب حتى يجي إمام المسجد ويملك بك عليه....

حضر إمام المسجد وأخبره العقيد سامي بالموضوع..

- يا سعادة المدير أنا ما قد مر عليّ مثل هذه الحالة...

- أنا أرى أن ذلك أصلح نحن اعلم بمثل هذه الحالات وإلا تبغاني أتركها تضيع في الشوارع.... وصاح في وجه الشيخ حتى وصل الخوف إلى قلوبنا نحن...

- حاضر يا سيدي.... يعني لازم يكتب هذا في دفتر الزواجات....؟

- ثم صاح في وجهه ثانية.. أجل إحنا نلعب..؟ لازم يكتب زواج صحيح وكل العسكر اللي هنا يشهدوا...

-... تلعثم الشيخ ولم يعد يتذكر شيء... أنا أروح أجيب الدفتر من البيت...

- روح ولا تطول روح معه يا عسكري...

-.. وعاد الشيخ بعد فترة قصيرة وجلس أمام العقيد سامي وقال أين العريس...

- هذا هو أمامك حمدان.. • قال ذلك مدير الشرطة)

- أين وكيل المرأة..؟

- هذا العمدة هو وكيلها..

- إيش اسم العروس...؟

- إيش اسمك يا بنتي.. (قال ذلك العمدة)....
- اسمي غالية.... (قالت المرأة ذلك)
- غالية بنت مين (قال ذلك الشيخ)....؟
- غالية بنت حسن.....
- مولودة فين يا غالية....؟
- أنت مالك ومال مكان الميلاد صاح بذلك العقيد سامي في وجه الشيخ...
- لازم اكتب هذا في الدفتر يا سعادة المدير..
- رد عليه العقيد سامي اكتب مولودة في جده وخلاص
-... طيب كم المهر....؟
- أربعة ريال....
- ضحكت أنا فالتفت إليّ العقيد سامي بنظرة نسيت منها كل شيء..
- استلمت الفلوس يا غالية...؟
- نعم استلمت....

وثم عقد الزواج عليها..... وقبل أن يخرج... صاح العقيد سامي على حمدان بصوت مرتفع... إذا أردت أن تطلقها فكان عليك أن

توصلها إلي بيت أهلها في الجنوب ثم تطلقها..

وتمر الأيام

فدخلت إلى مطعم سمك في باب شريف وطلبت غداء.... وبعد الغداء ذهبت إلى صاحب المطعم لأحاسب في الأكل الذي أكلته.... وعندما اقتربت منه قام واستقبلني بالأحضان وسلم في رأسي وفي كفي وقال....: ما عرفتني يا خالد..؟

- أبدًا والله....

- تعرف حمدان الذي زوجتموه من زوجته بعدما طلقها ونحن في حارة الهنداويه....؟

- نعم..... وسلمت عليه مرة أخرى وإذا بولد يعمل معه في المطعم في سن الثامنة تقريبًا يطلب منه أن يسلم عليّ.. ويقول لي.. تعرف هذا..؟

- لا...

- هذا ولدها.. الله يذكركم بالخير وسألني عن العقيد سامي وطلب مني إبلاغه السلام....

بالقرب منا كان محل قهوة أبو نصيب لكننا لم نكن نجلس فيها وقريب أيضًا مخابز اليسر للجفري وكنت اذهب للصلاة في مسجد

الشروق أنا والعقيد سامي..... أحيانًا نشتري سوبيا من عم سعد غنيم.... ثم نمضي على بقالة مرشد.... ونعرج على مكتبه القنديل.... نحجز عنده مجله العربي وكذلك مجله المصور وآخر ساعة التي كانت تأتي من مصر أسبوعيًا..... ثم نعود إلى السكن في عمارة أبو نصيب...

أحيانًا نأخذها مشيًا على الأقدام أنا والعقيد سامي أو بسيارة الشرطة (الجيب) إلى شارع الحديبية وعند المثلث نشتري فول وأحيانًا نمر على محل بيع الشاورما والطعمية القريب منها....

سارت الأمور إلى الأحسن واشتريت بيت شعبي قريب من مسجد العماري واستمرت علاقتنا مع العقيد سامي وعائلته..... وحملت زوجتي.... ورزقنا الله بولد ثم حملت مرة ثانية وثالثة حتى أصبح لدينا ولدين وبنتين والحمد لله ونحن في أحسن حال.....

انتهت الرواية

محمد عصبي الغامدي